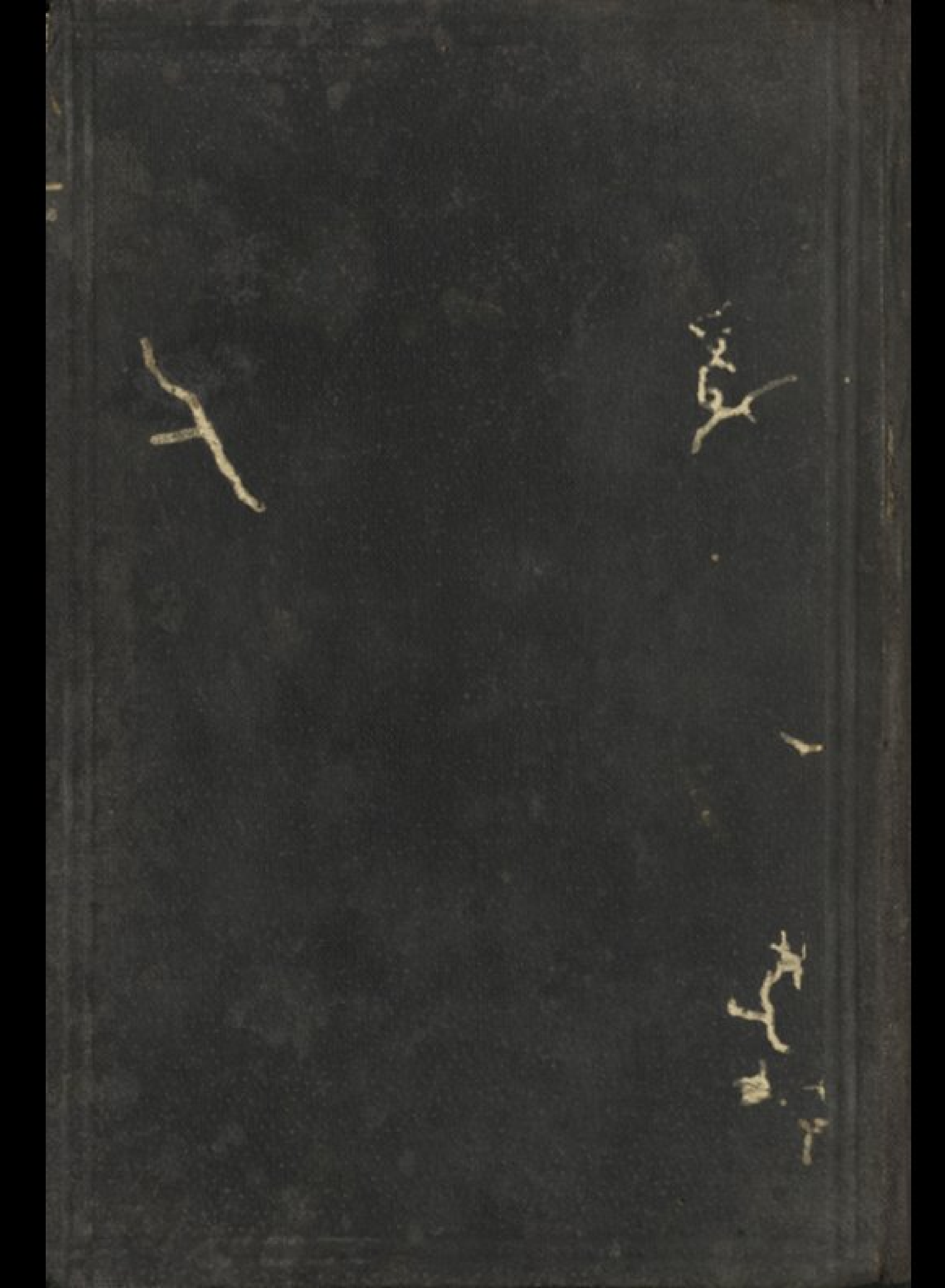


هدية من مجلة الجامعة الى قرائها



او

اين نجد الحقيقة وكيف نجدها

بقلم

فرح انطون

منشئ مجلة الجامعة



رسم مؤلفه برناردين الشهير

رواية فلسفية من تأليف الكاتب الشهير برناردين دي سان بيير . وقد كان نابوليون الاول شديد الاعجاب بها حتى انه كان كلما لقي برناردين مؤلفها يقول له « متى تكتب لنا كوخاً هندياً ثانياً » اما موضوعها فهو البحث عن الحقيقة وتقرير ماهيتها والطريق اليها ويتخلل ذلك كلام عن البراهمة كهنة الهنود وعن رئيسهم واخلاق الهنود ووصف شؤونهم واكتشاف الحقيقة في الهند مهد الفلسفة والحكمة . وكل هذا في قالب قصة لطيفة يجدر بجمهور العقلاء أن يطالعوها بامعان كثير . وهي مصدرة بترجمة المؤلف وفيها عدة رسوم

الاسكندرية . في اول اغسطس (آب) ١٩٠١

ترجمة المؤلف

« قال برنارد بن دي سان بيير مؤلف هذا السفر الجليل في كتابه " بولس وفرجيني " ما ملخصه .

« ان صناعة الادب صناعة سماوية استنزلها الانسان بعد تمدنه فاعظم شرف للانسان على هذه الارض هو ان يكتب كتابًا . لانه به ينير عقول الشعوب و يعزي الحزانى ويخفف احمال المتعبين (١) واي رجل لا يضرب صفحًا عن مصائب الحياة ولا يستخف متاعبها اذا كان يعلم ان كتابه سينتقل من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل كمصباح ينير الظلمات وحاجز يصدّ الضلال . وانه من المكان الصغير الذي عاش فيه يخرج مجد باهر يمحو تجد كثيرين من الملوك الذين تفنى آثارهم وتوضع التماثيل التي اقامها لهم المتزلفون منهم في زاوية

(١) وقال الخليفة المؤيد « الكتابة اشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة »

النسيان مع ان آثار ذلك الكاتب لا تزول »

ومن حقنا ان نذكر هذا الكلام الذي قاله برناردين في صدر هذا السفر الذي لخصناه عنه للدلالة على صدقه . فقد نسي الناس اسماء الملوك الذين عاصروا برناردين وعفى الزمان ذكر الوزراء والعظماء والكبراء والاغنياء الذين عاشوا في زمانه مع ان اسم برناردين لا يزال يدوي في الجهات الاربع وها نحن ننشره الآن في الشرق والغرب بين الوف من القراء بعد انقضاء نحو قرن على وفاته

ولقد توفي برناردين في اراني من اعمال فرنسا في عام ١٨١٤ وولد في الهافر عام ١٧٣٧ وكان ابوه مديرًا لشركات مركبات السفر في الهافر فنشأ برناردين في الفقر وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة للآباء اليسوعيين في كاين وفي مدرسة اخرى في روين . وقد اكثر في صغره من مطالعة كتاب روبنصن كروزي وكتاب سير القديسين وسافر الى المرتنيك وكان كثير الجلوس على شاطىء البحر والتأمل فيه وساح سياحات كثيرة مع راهب يدعى « الاخ بولس » فكل هذه الشؤون غرست فيه ميلاً الى الطبيعة ونفورًا عن الناس وحبًا

شديداً للرحلات البعيدة . فقام في نفسه ان يزين لحكومة روسيا انشاء مستعمرات في شواطىء بحيرة "ارال" فسافر الى بطرسبرج فعرف فيها المرشال دي مونيخ والجنرال بوسكه والمسيو دي فيلبوى . فمال اليه المرشال واصطنعه . اما الجنرال بوسكه فانه "قدم له يد ابنة اخته" اي اقترح عليه الاقتران بها فاعتذر برناردين لانه كان فقيراً . واما المسيو فيلبوى فانه سعى لجعله ضابطاً في الجيش الروسي وقربه من الامبراطورة كاترين الثانية فكان اقرب المقربين اليها فيما قالوا لانه كان صبوح الوجه لطيف المنظر كما ترى في رسمه و بعضهم زعم انه صار عشيقها . ثم ارسلوه بمهمة الى فينلنده ولما عاد منها ارسلوه الى بولونيا ولكنه لم يلبث ان سئم الشؤون السياسية السرية التي كان يمارسها فقفل راجعاً الى وطنه . فعرض عليه فردريك الكبير ملك بروسيا رتبة ضابط في الجيش البروسي في عودته فابى برناردين ذلك وعاد الى باريز فاصطنعه المسيو دي برتوبل وارسله الى «جزيرة فرنسا» احدى المستعمرات الفرنسوية . فبقي في المستعمرة ضابطاً ومهندساً وهو يبعث من حين الى حين رسائل الشكوى الى المسيو دي برتوبل حتى سئم منه فتخلى

عنه · و بعد مدة عاد الى باريس فقيرًا كما ذهب منها وقد سئم الاستخدام في الحكومة وعزم على « ان يعيش من ثمار بستانه » كما قال اي من شق قلمه · فعكف على الكتابة والتاليف ومنذ هذا الحين دخل في الطريق المستقيمة التي خُلق لسلوكها دون سواها · فالف برناردين كتبًا كثيرة منها سياحة الى (جزيرة فرنسا) · وسياحة الى راس الرجاء (الكاب) · واركاديا · ودروس طبيعية وهي اقسام · والطبيعة والادب · وسياحة في سيليزيا · وموت سقراط · وكلام عن الجرائد · وكلام عن جان جاك روسو · وقصص السفر · وغيرها من الكتب والاسفار المفيدة ·

ولما انتشر بين الناس اول هذه الكتب (وهو سياحة في جزيرة فرنسا) اقبل القراء من كل جانب عليه وشعر الخاصة والعامة ان هذا الكاتب قادم اليهم باسلوب جديد ولهجة جديدة · فقد كانت عبارته رقيقة تكاد تذوب طلاوة وحلاوة وكان له في وصف المناظر الطبيعية والعواطف الادبية والدينية اسلوب لم يظهر على قلم غير قلمه · فانهالت على الكاتب كلمات التنشيط والثناء ومعها المال الكثير لان تلك من غير هذا قلما

تجدي نفعاً · فسعى له رئيس اساقفة اكس فمنحته الحكومة راتباً قدره الف فرنك · وعينت له احدى الجوائد ٦٠٠ فرنك والدوق دورليان ٨٠٠ فرنك وعين له احد اقلام الحكومة الف فرنك ايضاً وربح من كتبه لاول مرة ٦ الاف فرنك فاكتفى برناردين الحاجة بهذا المال واستطاع التفرغ للتاليف والكتابة. فانار بقلمه سماء فرنسا وقتاً طويلاً وصار الناس يزدحمون على صداقته بقدر ما كانوا يبتعدون عنه قبل شهرته

ولكن اهمُّ الكتب التي كتبها كتابان لم نذكرهما الآن بين كتبه · وهما «الكوخ الهندي» الذي نحن في صدده «وبولس وفرجيني» اما الكوخ الهندي فلا نذكر عنه شيئاً لانه امام القارىء واما كتاب «بولس وفرجيني» فقد خلد اسم برناردين الى الابد ووضعه في مصاف هوميروس وفرجيل وتاسيت وغيرهم من الخالدين

اما موضوع هذا الكتاب فهو وصف الطبيعة ومحاسنها وانتقاد التمدن الحالي وسرد قصة عيلتين عاشتا معاً في الطبيعة في كوخين صغيرين وكان لاحداهما غلام يُدعى بولس وللاخرى فتاة تُدعى فرجيني وكل القصة مبنية على حب

هذين الولدين بكلام كانه السحر الحلال ووصف كانه الماء الزلال · وربما نقلنا هذا الكتاب الى اللغة العربية او لخصناه تلخيصاً في الجامعة لما فيه من المبادىء الادبية والطبيعية السامية الواجب نشرها بين الناس · وقد قال احد المؤلفين انه يراهن على انه لا يوجد في العالم كله شخص يقرأ هذا الكتاب ولا يبكي بكاء مرًّا · واذا وجد شخص كهذا الشخص فيجب ان يكون قد ُقدَّ من جلمد · وقد جربنا ذلك بانفسنا فقرانا هذا الكتاب مع صديق منذ بضع سنوات فكانت دموعنا تمتزج بدموعه حين القراءة امتزاجاً كان حلوًا في اوله لان البكاء كان من الحنو ورقة الكلام ثم صار مرًّا في آخره لانه كان متحلباً عن حزن عظيم لفاجعة مؤلمة تثير العواطف من اعماق النفس وتحركها كما تحرك الزوبعة الاعشاب

ولما ُنشر هذا الكتاب في باريز (عام ١٧٨٩) قام له عالم الادب وقعد ولم يولد غلام في ذلك العام الا وسمي «بولس» ولا ابنة الا وسميت « فرجيني » · وقد زور ناشرو الكتب طبعة هذا الكتاب ٣٠٠ مرة اي انهم طبعوه ٣٠٠ طبعة من غير علم المؤلف · وقد كان « للكوخ الهندي » من الاهمية ما

كان « لبولس وفرجيني » اما باقي كتب برناردين فانها دون هذين الكتابين

ولما بلغ برناردين هذا الشأو كان قد وصل الى قمة جبله (اطلب تفسير ذلك في الصفحة ٤٧ السطر ٨) وكان اكتب كتاب زمانه بعد جان جاك روسو الذي كان استاذه . وقد تزوج برناردين مرتين واخذ في كل مرة دوطة طائلة مكنته من ابتياع منزل بعيد عن الناس والمعيشة فيه بين الازهار والاشجار والدفاتر والمحابر براحة وسلام كما عاش صاحب الكوخ الهندي في هذا الكتاب . وقد توفيت زوجته الاولى وهي مستاءة من هذه المعيشة اما زوجته الثانية فان الانفراد كان منطبقاً على ذوقها فعاشا معاً سعيدين مستترين . ولما توفي برناردين اقترنت زوجته بالكاتب ايمه مارتين المشهور فتولى هذا الكاتب طبع كتب برناردين . وقد طالعنا من كتب « ايمه مارتين » كتاب « تربية امهات العائلة » فرايناه فيه يكثر من الاستشهاد ببرناردين ويلقبه بالفاضل مراراً وما كنا ندري يومئذٍ انه زوج امرأته

هذا ولقد عرَّفنا الى الآن قراء اللغة العربية بمبادئ رجلين

من اقطاب الادب والفلسفة في العالم وهما جول سيمون والكونت لاون تولستوي . فيسرنا الآن ان نعرفهم بمبادیء کاتب ثالث هي ارق واعذب من مبادیء الفيلسوفين اللذين تقدم ذكرهما وان لم تكن اعظم منها. وقد اخترنا نشر هذه المبادیء الادبية الفلسفية الجميلة على غيرها من المبادیء العلمية او التاريخية لاننا نرى الحركة الادبية والحالة الاجتماعية محتاجة اليها والقراء في جميع الاقطار اكثر ميلاً اليها منهم الى سواها. فعسى ان ينتفع بها طلابها

☀ فرح انطون ☀

منشیء مجلة الجامعة

ثمن المعرب

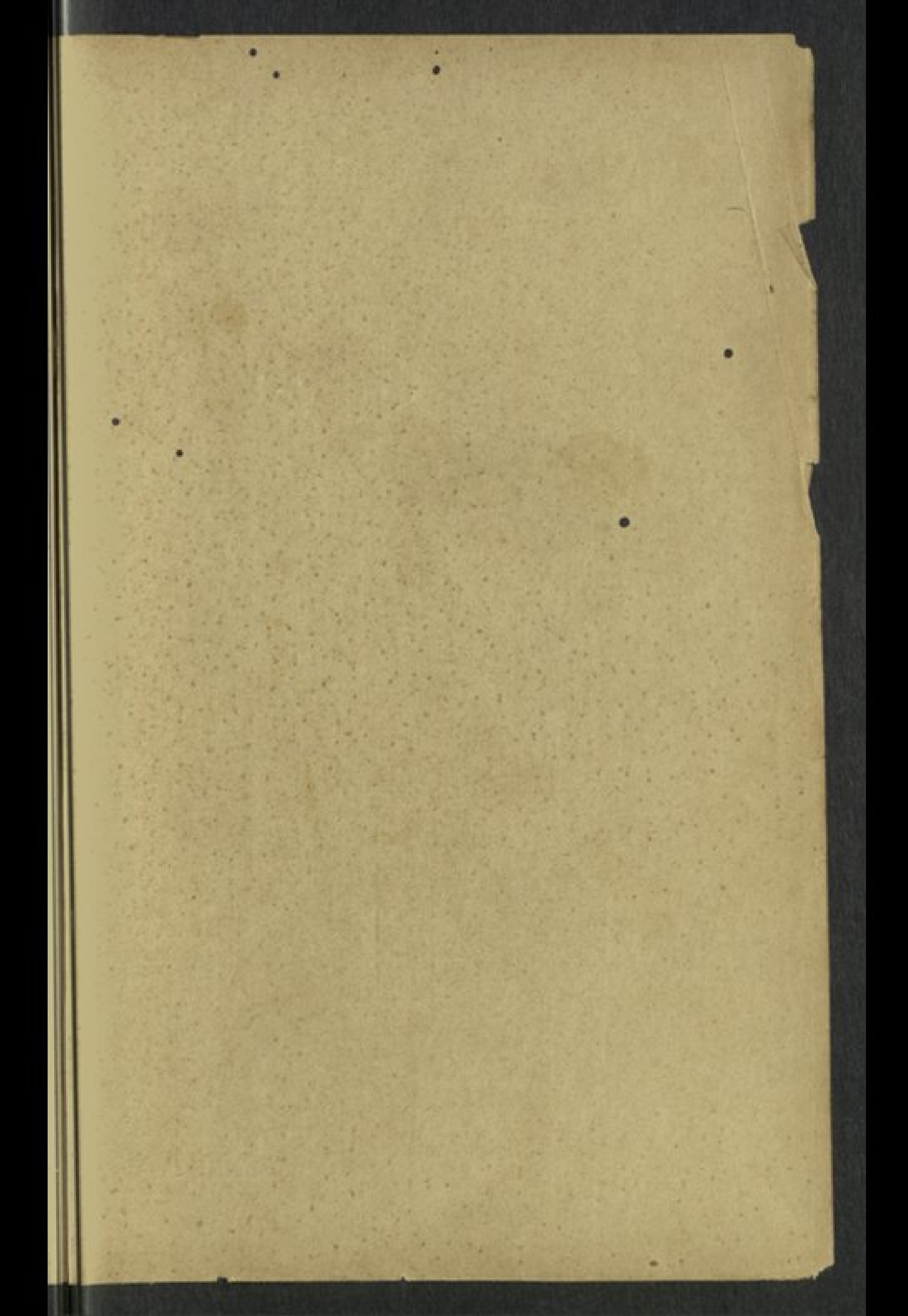
نتمنى أن لا تخلو مكتبة من هذا الكتاب

وان يضع كل معلم وكل معلمة في يد كل تلميذ وكل تلميذة نسخة منه بعد قراءته في ساعة الدرس وشرح مبادئه

وان تضعه كل امرءة في خزانة ابنتها بين مواد زينتها

وان يقع في ايدي جميع العقلاء الذين يطلبون الفائدة ويطربهم صوت الفضيلة

ولا ريب عندنا ان كل من يطالعه بامعان وتروٍ يشعر بعد مطالعته بانه صار افضل وارقى منه قبل مطالعته ويرى على الورق شيئاً من مبادىء الحقيقة والفضيلة والاخاء والعظمة الحقيقية التي قلما يرى منها شيئاً في هذا العالم



الفصل الاول

سفر العلماء الى اقطار العالم للتفتيش عن الحقائق

انعقد في لندن منذ زمن بعيد مجمع مؤلف من بعض علمائها للبحث عن الحقائق العلمية والتفتيش في جميع اقطار العالم عن كل ما من شانه اثارة عقول البشر وترقية شؤونهم وزيادة راحتهم · وقد انضم الى هذا المجمع كثيرون من نبلاء الانكليز واساقفتهم وتجارهم وبعض امراء الاسرة الانكليزية المالكة وبضعة من امراء شمالي اوروبا

وكان عدد العلماء في هذا المجمع عشرين عالمًا · فالقى المجمع الى كل واحد منهم سفرًا فيه بيان المسائل العلمية التي عزم على ارسالهم الى اقطار الارض للبحث عن حل لها وعددها ثلاثة الاف وخمس مائة مسالة · وكانت كلها مع اختلاف موضوعها ملائمة لطبيعة الاقاليم التي تقرر البحث فيها ومرتبطة بعضها ببعض اشد ارتباط حتى اذا انحلت احداها انحلّ معها

ما يتقدمها وما يليها كأنَّ رئيس المجمع الذي انشأها بمساعدة رفاقه الاعضاء قد شعر بان القضية قد يتوقف حلها على حل قضية اخرى مرتبطة بها وهلم جرًّا

وكان الرئيس يرى ان هذا العمل الذي عزم المجمع على عمله سيكون اعظم الاعمال العلمية التي اقدم الانسان عليها لأنه يكشف الغطاء عن مجهولات الكون ويجمع شتات الحقائق المتفرقة على ظهر الكرة الارضية . قال . واذا نجح هذا العمل العظيم كان اعظم دليل على ضرورة الهيئات الاكاذيمية (المجامع العلمية) لجمع الحقائق العلمية من اطراف العالم

وقد عهد المجمع الى اولئك العلماء فوق ما تقدم من البحث في المسائل التي اشرنا اليها ان يبتاعوا في طريقهم كل ما يجدونه من نسخ التوراة القديمة والكتابات والآثار القديمة . واذا لم يتمكنوا من ابتياعها فلينسخوها او يستنسخوها . ثم ان زملاءهم اللوردات والامراء اعطوهم تمهيدًا لهذا السبيل رسائل توصية الى سفراء انكلترا في الجهات التي يقصدونها فضلاً عن الحوالات المالية التي هي انفع من رسائل التوصية كما لا يخفى

الفصل الثاني

ماذا حدث لاحدهم وهو اشهرهم

وكان اشهر هؤلاء العلماء عالم كبير يعرف اللغة العبرانية والعربية والهندية فسار الى الهند مهد الفلسفة والفنون ليبحث فيها . فمر اولاً بهولانده فزار المجمع العبراني في امستردام ومجمع دوردريخت ثم عرّج على فرنسا فزار كلية السوربون واكاذيميتها . ومنها قصد ايطاليا فزار كثيراً من الجمعيات والمكاتب والمتاحف منها متحف فلورنسه ومكتبة سان مارك في البندقية (فينيسيا) ومكتبة الفاتيكان في رومه . واذ كان في رومه خطر له الشخوص منها الى اسبانيا لزيارة كلية سالمانكه الجامعة ولكن خوفه من ديوان التفتيش اثناه عن عزمه وجعله يؤثر السفر راساً الى تركيا فسار الى الاستانة ووقف على الكتب الثمينة التي في جامع آجيا صوفيا

ولما قضى وطره من الاستانة قصد مصر وباحث علماء الاقباط فيها ثم اتى لبنان وباحث علماء المارونيين ورهبان جبل الكرمل . وبعد ذلك شخص الى سانا في بلاد العرب

ومنها الى اصفهان فزار قندهار ودلهي واكرا

وهكذا صرف في سياحته ثلاث سنوات وهو ينتقل من مكان الى مكان ويناظر العلماء في كل بلاد نزل فيها حتى انتهى الى ضفاف نهر الكانج الى بيناريس التي هي من الهنود بمنزلة آثينا من اليونان . اما ما جمعه في اثناء هذه السياحة من الكتب والنسخ القديمة والكتابات والاثار في كل فن وعلم فحدث عنه ولا حرج . فانه جمع مجموعة لم يجمعها احد قبله وليس لاحد ان يجمعها بعده . وكفى في وصفها ان يقال انها كانت مطوية في تسعين " رزمة " زنتها الفان وثلاثمائة وست وثمانون اقة . وكان الدكتور مسرورًا بها لانها جاوزت آمال المجمع الذي بعثه لجمعها

الا ان الدكتور جلس في ذات يوم يفكر في سياحته ويقلب " رزم " مجموعته فخطر له خاطر ملأ نفسه حزنًا وانقباضًا . ذلك انه سأل نفسه : « اي امر عظيم صنعتُ بعد كل ما جمعتُ من الكتب المختلفة والآثار المتباينة . انني باحثت علماء الديانات اليهودية والبروتستانتية والكاثوليكية والارثوذكسية والاسلامية والارمنية والفارسية والهندية وذاكرت اكاذيبات

باريز وكريسكا واركاد واربع وعشرين اكاذيمية اخرى ٠ ومع ذلك فاني عجزت عن حل مسالة واحدة من الـ ٣٥٠٠ مسالة التي ارسلت للسؤال عنها والبحث فيها



الدكتور جالس يتأمل ماذا جنى من تعبه والى جانبه الآثار التي جمعها

وكانت هذه المسائل مقسومة اقساماً ٠ فمنها ٢٠٠ مسالة في الديانة العبرانية و٥٨٠ في الكنيسة اليونانية والرومانية

وفروعها و٣١٢ في ديانة البراهمة القديمة و٥٠٨ في اللغة السنسكريتية اي لغة الهنود المقدسة و٣ في حالة الهنود الاجتماعية الحاضرة و٢١١ في التجارة الانكليزية في الهند و٧٢٧ في الآثار القديمة التي في جزائر اليفانتا وسالسيت و بومباي و٥ في تاريخ العالم وقدمه و٦٧٣ في مصدر الند السنجابي وحجر البازوارد وانواعه العديدة و١ في السبب الذي يدفع الاوقيانوس الهندي ستة اشهر الى الشرق وستة الى الغرب وهو الامر الذي لا يزال مجهولاً و٣٧٨ في مصادر نهر الكانج وفيضانه ٠ وقد عُهد الى هذا العالم فوق ذلك ان يبحث بحثاً مدققاً في مصادر نهر النيل واسباب فيضانه لان ذلك شغل عقول العلماء قروناً عديدة ٠ ولكنه لم يكن يلتفت كثيراً الى هذه المسالة لانها كانت خارجة عن دائرة ابحاثه الاصلية فضلاً عن ان جمعية العلماء كانت قد فرغت في المناظرة فيها

فعند ما عدَّد العالم الانكليزي المسائل التي مرَّ ذكرها اخذ يقول في نفسه : « ماذا استفدت من كل الاثار التي جمعتها ٠ ان هذه الكتب والاسفار والملاحظات تجيب كلها عن المسائل المطلوب حلها اجوبة متناقضة متباينة ٠ فاذا

افترضنا انها تجيب عن كل مسالة منهـا خمسة اجوبة متباينة فقط كان مجموع اجوبة الـ ٣٥٠٠ مسالة ١٧٥٠٠ جواب . واذا افترضنا ان كل واحد من زملائي التسعة عشر الذين ارسلوا للبحث مثلي قد جاءوا بهذا العدد من الاجوبة ترتب على المجمع الملكي المذكور آنفاً ان يحلّ ثلاثمائة وخمسين الف مسالة قبل ان يتمكن من تقرير حقيقة ووضع مبداء على اساس وطيد

اذن فالمجموعة التي جمعها هو ورصفاؤه كانت نتيجتها ابعاد المسائل المطلوب حلها الواحدة عن الاخرى بدلاً من جمعها وتوجيهها كلها الى مركز واحد ونقطة واحدة . وذلك مما يزيد ظلام العقول ظلاماً و يزيد البعد عن الحقيقة بعداً . وهذا هو الامر الذي ساءه وملأ نفسه حزناً وانقباضاً . فجعل يقول في نفسه « ماذا صنعت اذا كنت بعد كل ما عانيت من المشاق والاضطهاد لا احمل لابناء وطني في هذه الرزم الكثيرة سوى وسائل جديدة للشك والارتياب ومواضيع جديدة للمناظرة والخصام »

الفصل الثالث

طلب الحقيقة في قصر راس البراهمة

وقد كان يفكر في ذلك وهو على اهبة العودة الى انكلترا وفي نفسه مرارة الضجر واليأس واذ بلغه من براهمة بيناريس ان راس البراهمة المقيم في هيكل «جاكرنا» قادر وحده على حل جميع المسائل التي كان يسأل عنها · وكان هذا الهيكل قائماً على شاطىء اوريكسا بجانب البحر قريباً من احد مصاب نهر الكانج

اما هذا البرهمي فانه كان اعظم البراهمة في ذلك الزمان واوسعهم علماً واكثرهم شهرة وقد طبق صيته الخافقين فكان الهنود وغير الهنود يفدون عليه من كل اقاليم الهند وممالك آسيا لاستشارته واستفتائه

فسافر الدكتور في الحال الى كلكيتا وقابل مدير الشركة الانكليزية الهندية واطلعه على عزمه · فاجلالاً للعلم وللوطن الذي ينتمي الدكتور اليه قدر المدير هذا الامر قدره واعدّ للدكتور معدات السفر · فخرج الدكتور من كلكيتا بحاشية



الدكتور جالس في هودج هندي وسائر في ركب هندي
لمقابلة راس البراهمة

غريبة الازياء . فانه ركب هودجاً هندياً يحمله ثمانية رجال من اقوياء الهنود على اكتافهم وصحبه رجال غيرهم واحد منهم لحمل الماء وثانٍ لحمل الابريق وثالث لحمل النارجيلة ورابع لحمل مظلة تقي الدكتور حر النهار وخامس لحمل النور في الظلام وسادس لجمع الحطب وشقه وطباخان لاصلاح الطعام وجمالان

بقائديها لنقل المؤونة والاثقال وساعيان لاعلان حضوره واربعة فرسان على جياد فارسية لحراسته ورجل لحمل العلم الانكليزي في المقدمة. وكان مدير الشركة عالماً بعادات الهنود فلم يكن يجهل انه لا يجب المثول لدى كبرائهم بايدٍ فارغة ولذلك اعدّ للدكتور هدية ليرفعها الى رئيس البراهمة . اما هذه الهدية فكانت تلسكوباً بديعاً وبساطاً فارسياً جميلاً يليق بان يُبسط تحت قدمي عظيم البراهمة فضلاً عن انسجة جميلة لامرأته وثلاث قطع من النفتا الصينية الحمراء والبيضاء والصفراء ليجعل منها وشائح لتلامذته . فوضع الدكتور هذه الهدايا في هودجه ثم سار محمولاً على اكتاف الرجال قاصداً هيكل جاكرينا.

الفصل الرابع

باي سوءال يبتدىء

وفيما هو سائر على اكتاف رجاله اخذ يقلب سفر المجمع الملكي ويبحث فيه عن المسائل التي يجب ان يستهل بها كلامه مع رئيس البراهمة . فجعل يسال نفسه قائلاً :

أ استهله باحدى المسائل المتعلقة بنهر الكانج ام بالمسالة المختصة بالبحر الهندي وتعاقب امتداده الى الشرق والغرب فاننا اذا وقفنا على اسباب هذا الامتداد تمكنا من الاستدلال على مصادر الاوقيانوس وحركاته في كل اقطار العالم . ولكن الدكتور ما لبث ان عدل عن هذه المسالة لانها على اهميتها كانت لا تزال في حيز الاهمال . فراى ان يساله اولاً هذا السوءال : « هل كان الطوفان عاماً على الارض » فان هذا الامر قد اضرم نار الجدال والخصام مرات عديدة . ثم عدل عن هذا وبدا له ان يساله عما جاء في تقاليد المصريين حسب رواية هيرودوتس من ان الشمس غيرت مجراها مرارًا فكانت تشرق من المغرب وتغرب في المشرق . ولكنه رأى ان يعدل

عن هذا السؤال ايضاً ويختار الاستفهام منه عن قدمية العلما وتاريخ الخليقة الذي يجعله الهنود متعددة ملايين من السنين. ثم جال في خاطره ان يساله عن حقوق الانسان وواجباته واحسن الحكومات وافضلها لسياسة الشعوب. الا ان هذه المسائل لم تكن واسفاه من ضمن مسائل المجمع .

وبينما هو يُجيل هذه المسائل كلها في خاطره استوى بغتة جالساً في الهودج والقى الكتاب من يده وقال في نفسه : لا هذه ولا تلك . بل استهل كلامي مع رئيس البراهمة بسؤاله عن الحقيقة واين نجدها وما هي الطريق اليها فانَّ حلَّ هذه المسالة بمنزلة حل جميع المسائل التي لدي. نعم اين نجد الحقيقة وما هي الطريق اليها ؟ فان قيل اننا نجدها في الكتب قلت ان جميع الكتب متناقضة متباينة . وان قيل ان العقل يوصلنا اليها ويعرفنا بها اجبت ان العقل يختلف في البشر باختلاف اذواقهم وتربيتهم واخلاقهم ومصالحهم . فاذا اجابني رئيس البراهمه وحلَّ مسالتي اصبحت قابضاً على مفتاح الحقائق الادبية والعلمية كلها فافتح بها حينئذ اقفال المسائل التي معي واعيش بواسطتها مع الناس براحة وسلام

هذا ما كان الدكتور يفكر فيه وهو سائر على اكتاف الرجال

الفصل الخامس

الوصول الى هيكل جاكرنا

وبعد مسير عشرة ايام بلغ خليج بنكال فكان يلقى في طريقه افواجاً افواجاً من الناس عائدين من هيكل جاكرنا وكلهم السنة ناطقة بفضل راس البراهمة الذي تشرفوا بمقابلته لاستفتائه واستشارته فادهشهم بسمو مداركه وسعة معارفه

ولما طلع صباح اليوم الحادي عشر ظهر للدكتور هيكل جاكرنا القائم على شاطئ البحر وبدت له جدرانه الحمراء الضخمة واروقته وقبابه وابراجه الصغيرة المصنوعة من الرخام الابيض · وكان هذا الهيكل قائماً في ملتقى تسعة طرق كبرى على جوانبها صفوف الاشجار الظليلة الدائمة الخضرة · وكان كل واحد من هذه الطرق يؤدي الى واحدة من الممالك التالية : سيلان وخولكند وبلاد العرب والفرس وثيبة والصين وآفا وسيام وجزائر البحر الهندي · وكل واحد منها مغروس



هيكل جاكرينا مقام راس البراهمة ـ الدكتور والبرهمي البواب امام الباب

بنوع من الشجر . فاحدها مغروس بالنخيل الهندي والثاني بالنارجيل والثالث بالعنباه والرابع بالكافور والخامس بالخيزران والسادس بالموز والسابع بالصندل والثامن بشجر التيك والتاسع بشجر اللاتانيه

اما الدكتور فوصل الى الهيكل من الطريق المغروس بالخيزران وهو الذي يجاور الكانج والجزائر الجميلة التي هي عند مصبه · ولما بلغ الهيكل وتامله عن قرب عرته دهشة مما شاهده في بنيانه من الضخامة والفخامة · فقد كانت ابوابه البرونزية تتالق تحت اشعة الشمس تالق البلور والنسور حائمة حول قبابه الشاهقة التي كانت تناطح السحاب وتتوارى في العنان · وكان محاطاً باحواض كبرى من الرخام الابيض تنعكس الى مائها الصافي صورة قبابه وار وقته وابوابه · حول ذلك كله فناء متسع وحدائق فسيحة فيها كثير من الابنية يسكنها البراهمة القائمون بخدمة الهيكل

ولما دنا الدكتور من ابواب الهيكل تقدمه سعاته ركضاً لاعلان قدومه · فما دخل هؤلاء حتى خرجت من احدى الحدائق بعض العذارى الهنديات ممن وظيفتهن الرقص والغناء امام الهياكل واستقبال الزائرين فاسرعن لملاقاة الدكتور بالغناء والرقص وفي اعناقهن وخصورهن عقود واكاليل من زهر طيب الرائحة · فسار الدكتور مع رجاله بينهن وهن راقصات منشدات تنبعث منهن الروائح العطرة

. ولما دخل الدكتور الى فناء الهيكل التي نظره من الباب الى الداخل فرأى في صدر المكان على نور القناديل الفضية والذهبية الموقدة فيه تمثال «جاكربنا» بشكل هرم ولا يد له ولا رجل لانه فقدهما يوم اراد حمل العالم ليخلصه ٠٠ اما جاكربنا هذا فانه المخلوق الذي تجسد فيه برهما للمرة السابعة٠ وكان على قدمي التمثال كثيرون من الهنود جاثون امامه برهبة وخشوع ووجوههم لاصقة بالارض وكلهم يستغفرون جاكربنا ويسالونه ان يرضى عنهم ٠ وكان بعضهم ينذر ان يعلق نفسه من كتفيه وراء مركبته في يوم الاحتفال الذي يُحتفل به اكراماً لعيده وبعضهم ينذر ان يلقي بنفسه تحت عجلاتها ترضياً له

فقام في نفس الدكتور انفة واشمئزاز من تلك النذور والمناظر فصرف وجهه عنها وهمّ بالدخول الى الهيكل٠ فاعترضه برهمي شيخ كان يحرس الباب وساله عن الامر الذي جاء من اجله فابلغه الدكتور ذلك فقال له البرهمي انه لا يجوز له المثول بين يدي «جاكربنا» او كاهنه الاعظم ما لم يُغسل ثلاثاً في احد مغاسل الهيكل ويُنزع عنه كل ما كان عليه من اثر

الحيوان خصوصاً البقر والخنزير لان البراهمة يعبدون الاول ويكرهون الثاني

فاجابه الدكتور

« وما الحيلة اذًا بالهدية التي جئت بها الى راس البراهمة فان فيها بساطاً فارسياً مصنوعاً من شعر ماعز انقره ونسيجاً من الحرير »

فاجابه البرهمي « ان كل ما يُقدم الى هيكل جاكرينلو او الى كاهنه الاعظم يطهر من نفسه اذا كان نجساً »

فاضطر الدكتور الى خلع ملابسه وحذائه لان الملابس مصنوعة من الصوف والحذاء من جلد الماعز ثم خلع قبعته لانها مصنوعة من جلد كلب الماء وبعد ذلك اخذوه الى احد مغاسل الهيكل فغسلوه فيه ثلاث مرات ثم جاءه البرهمي بغطاء قطني كبير فالتف به وسار في اثر البرهمي الى باب القاعة الكبرى التي هي مقام راس البراهمة

ولكنه لما وصل الى الباب رآه البرهمي يتأبط كتاباً وهو السفر الذي يحتوي مسائل المجمع الملكي فساله عن المادة التي صُنع منها غلاف هذا الكتاب فاجاب الدكتور انه من

جلد العجل . فاستشاط البرهمي غيظاً وصاح بالدكتور

« اما اخبرتك ان البقر من معبودات البراهمة فكيف تُقدم على مقابلة كبيرهم وفي يدك كتاب مغلف بجلد معبوده يجب عليك الآن ان تُغسل ثلاثاً ايضاً فانك اصبحت نجساً بمسّك هذا الجلد »

ولكن الدكتور كان من حسن الحظ حكيماً وممن يحسنون التخلص . فذهب الى ملابسه ثم عاد ووضع في يد البرهمي قطعاً من النقود فلزم البرهمي الصمت كأن المال ماء الكانج يطهر من كل رجس . ثم انه القى ذلك الكتاب في محمله وقال في نفسه : لست بحاجة الى هذا الكتاب اذ حسبي ان اسأل عظيم البراهمة هذه المسائل الثلاث

— ما هو الطريق الى الحقيقة

— اين نجد الحقيقة

— هل يجب ان نقول الحقيقة للناس دائماً

قال ذلك ثم دخل في اثر البرهمي الى قاعة رئيس البراهمة وهو مكشوف الراس عاري القدمين لا يستر جسده الا الغطاء القطني الذي ذكرناه آنفاً

الفصل السادس

في قاعة راس البراهمة

ولما دخل الدكتور الانكليزي الى قاعة راس البراهمة أخذ يتامل في المكان فوجده قاعة متسعة سماؤها قائمة على اعمدة ضخمة من خشب الصندل وارضها مفروشة ببسط دقيقة طول الواحدة منها سبعة اقدام في سبعة عرضاً . وكان في صدر القاعة دكة عالية محاطة بدرابزون من خشب الابنوس وفوق الدكة راس البراهمة الجليل بلحية بيضاء وثلاثة خيوط قطنية حسب عادة البراهمة . وكان جالساً على بساط اصفر اللون وهو جامد كالصنم لا يتحرك منه عضو حتى عينيه وحوله تلامذته بعضهم يطرد الذباب عنه بمذبات مصنوعة من اذناب الطاووس و بعضهم يحرق عود الند في مجامر من الفضة والياقوت والبعض يضربون على السنطير انغاماً شجية . وكان حول دكة الرئيس صفوف من الزهاد والعلماء والدراويش في جملتهم بعض تلامذته وكلهم باذرع مطوية على صدورهم مطرقون الى الارض هيبة واجلالاً

فهم الدكتور بان يتقدم الى دكة راس البراهمة قياماً بواجب التحية والسلام فمنعه البرهمي من ذلك واوقفه عند البساط التاسع اذ لا يجوز لاكابر الهنود ان يتجاوزوا هذا الحد . اما الحكام فانهم يصلون الى البساط السادس والامراء ابناء الملك الى البساط الثالث . وليس لاحد شرف الوصول الى راس البراهمة لتقبيل قدميه تبركاً بذلك غير ملك الهند وحده

فما احمق الانسان واجهله . من يصدق ان البشر يصل بعضهم الى هذا الترفع والتجبر وبعضهم الى هذا الخوف والدناءة

وكان الدكتور قد امر رجاله بان يضعوا عند مدخل القاعة الهدايا التي جاء بها الى رئيس البراهمة فاخذها البراهمة الى رئيسهم فالقى عليها الرئيس نظرة لا تدل على استحسان ولا استهجان ثم نقلوها الى داخل القصر

اما الدكتور فانه لما وقف عند البساط التاسع اراد ان يستهل كلامه بخطبة انيقة باللغة الهندية لانه كان يعرفها فاشار اليه البرهمي بالصمت حتى يخاطبه راس البراهمة فصمت وجلس

منضجرًا من كل هذه الترتيبات المتعبة . ولكنه تسلى بان قال في نفسه « يهون عليَّ كل تعب في سبيل الحقيقة والبحث عنها »

الفصل السابع

القاء الاسئلة الثلاثة

ولما جلس الدكتور سكتت اصوات الموسيقى وساد في القاعة سكوت تام فسأل حينئذٍ راس البراهمة الدكتور هذا السؤال

« ما جاء بك الى الهند »

غير ان الرئيس لم يخاطب الدكتور مباشرة بل القى هذا السؤال الى درويش وهذا الدرويش القاه الى درويش ثانٍ فالقاه هذا الثاني الى درويش ثالث وهذا اوصله الى الدكتور

فاجاب الدكتور باللغة الهندية الفصحى

انما جئت هيكل جاكرينا لاشاهد كاهنه الاعظم الذي اشتهر بعلمه وحكمته واستفتيه في بعض المسائل العلمية والفلسفية

التي اعيانا حلها

وكانت جميع الابصار حينئذٍ شاخصة الى الدكتور فلما اتمَّ كلامه انتقلت الى راس البراهمة

وبعد برهة سأل راس البراهمة الدكتور بالطريقة الاولى

قل ما هي المسائل التي ترغب في حلها

فاجاب الدكتور على الفور . ان المسالة الاولى هي

— ما الطريقة التي يتوصل بها الانسان الى معرفة الحقيقة

فتأمل الكاهن الاعظم برهة ثم اجاب

ان الحقيقة لا تُعرف الا بواسطة البراهمة

فانحنى جميع من في المجلس اعجاباً بحكمة رئيسهم العظيم

اما الدكتور فساءه هذا الجواب لانه كان يتوقع جواباً احسن منه ولكنه كظم ما في نفسه وسأل السؤال الثاني وهو :

— اين نجد الحقيقة في هذا العالم

فشخصت جميع الابصار الى فم الرئيس تنتظر جوابه

البـاهر

فلم يلبث راس البراهمة ان اجاب

ان الخالق وضع الحقائق كلها في الكتب الاربعة الهندية المقدسة· وقد كتبت هذه الكتب باللغة السنسكريتيه منذ ١٢٠ الف سنة · ولا يقف احد على هذه الكتب ولا يفهم اسرارها الا البراهمة

فدوت هنا القاعة من تصفيق الجالسين واخذتهم هزة الطرب اعجاباً بهذا الجواب السديد

اما الدكتور فلا تسل عن حنقه وغيظه · ولكنه تجلد ليرى النهاية واجاب بشيء من النزق والحدة

ان كان الخالق قد وضع الحقائق في كتب خصوصية لا يقف عليها الا البراهمة ولا يفهمها احد غيرهم فذلك يدل على ان الخالق يخفي الحقيقة عن الذين ليسوا ببراهمة ولم يسمعوا بهم قط فهو بالتالي يمنعهم من معرفتها وهذا ظلم محض

فاجاب الرئيس· هكذا اراد برهما وليس للبشر الاعتراض على ارادته

فازداد الحاضرون تحمساً وتصفيقاً

فسأله الدكتور عند ذلك سؤاله الثالث وهو

— هل يجب ان نقول الحقيقه للناس دائماً

فاجاب الرئيس

من الصواب احياناً ان نخفي الحقيقة عن جميع الناس. ولكن لا يجوز البتة اخفاؤها عن البراهمة

فلم يتمالك الدكتور ان استشاط عند ذلك غضباً فصاح لماذا نُكره الناس على ان يقولوا الحقيقة للبراهمة اذا كان البراهمة لا يقولونها لاحد ولا ينفعون بها احداً . الا يكون ذلك ظلماً من البراهمة

ولكن ما لفظ الدكتور هذا الكلام حتى علت ضوضاء الحاضرين . فانهم سمعوا الدكتور يعزو الظلم الى الله سبحانه وتعالى فسكتوا عنه ولكنهم لم يسكتوا عند نسبته الظلم اليهم فقام الزهاد والعلماء والدراويش والبراهمة والتلامذة قومة واحدة لمناظرة الدكتور ومقاومته . فنهض حينئذٍ الرئيس وصفق بيديه قائلاً بصوت سمعه الجميع « ان البراهمة لا يناظرون علماء الافرنج » ثم نزل من مكانه وخرج من القاعة

فازداد القوم بعد خروجه صراخاً وهياجاً وكادوا يؤذون



الدكتور يعترض على راس البراهمة وهياج البراهمة عليه

الدكتور لولا معرفتهم بقوة الانكليز ونفوذهم بالهند . فخرج الدكتور من القاعة غاضباً منفجراً فقال له البرهمي الذي ادخله الى القاعة

« لو لم تغضب الكاهن الاعظم لقدم لك الشراب والطيب حسب العادة فلماذا اغضبته »

فاجاب الدكتور : بماذا اغضبته ؟

فقال البرهمي اغضبته باعتراضك على كلامه الا تعلم بانه حكيم الهنود وعظيمها وان كل كلمة من كلماته حكمة باهرة لا تفهمها العقول البشرية

فهزّ الدكتور راسه وخرج الى ثيابه وهو يقول : قد عرفت ذلك الآن ولكن يا ضيعة التعب الذي عانيته في الوصول الى هذا المكان

ثم اسرع الى ملابسه فنزع الغطاء القطني ولبسها وخرج يطلب رجاله

الفصل الثامن

الزوابع الشديدة في الهند

وكانت الغيوم حينئذٍ متلبدة في السماء والجو ينذر بالمطر والليل يرخي سدائله . فاستاذن الدكتور في المبيت في احدى غرف الهيكل فلم يؤذن له لانه كان « افرنجيا » اي نجساً فطلب ماء ليروي به ظماء ناله من التحمس والهياج فجاؤه بابريق فيه ماء فشرب الدكتور منه ثم ناوله للبرهمي فالقاه البرهمي على الارض وكسره لانه صار نجساً من فم « الافرنجي » فاستشاط

حينئذ الدكتور غضباً فسار الى هودجه وجلس فيه ثم امر رجاله بالمسير في الحال فعادوا به من حيث اتوا قرب هبوط الظلام

وبينما كان الدكتور في هودجه فوق اكتافهم جعل يتامل في المشاق التي عاناها للوصول الى هذا المكان وما كان من خيبة امله . واخذ يقول في نفسه : لقد صدق ما جاء في المثل الهندي « ان كل اوربي يقصد الهند يتعلم الصبر اذا كان غير صبور و يفقد صبره اذا كان صبوراً » فها انا قد عيل صبري . لقد تعبت في التفتيش عن الحقيقة سدى . فما هذا الشقاء البشري . أَقضي على الحقيقة ان تبقى مجهولة من الناس وعلى الناس ان يبقوا تائهين في وهاد الجهل والغباوة

وفيما هو يتامل في هذا الموضوع والليل قد ارخى سدائله هبَّ بغتة اعصار شديد يسميه الهنود « طوفاناً » فكانت الريح تهب من صوب البحر على مياه نهر الكانج فتقذفها على الجزائر التي عند مصبه ثم تثير من شواطئها الرمل والتراب وترفع من غاباتها اوراق الاشجار الى عنان السماء . وكانت الزوبعة تصدم الاشجار الضخمة المغروسة في جانبي الطريق فتعبث بها كما تعبث الريح الخفيفة الاعتيادية بالاعشاب وتحطم اغصانها وتلقيها في

وسط الطريق · وفضلاً عن ذلك فان نهر الكانج اخذ بالفيضان بعد هبوب الزوبعة وصار المطر يهطل غزيرًا · فخاف الدكتور ان تؤذيهم تلك الاشجار بالتوائها وانقصاف اغصانها وان يغرقهم نهر الكانج بفيضانه فامر رجاله بالخروج من الطريق والسير في الحقول نحو الربى والآكام المجاورة· فسار رجال الدكتور به في الجهة التي اشار اليها ثلاث ساعات على غير هدى تحت جنح الظلام · وبينما هم في هذه الحال واذا بوميض برق شق كبد السماء وانار الافق فرأوا على نوره الى يمينهم هيكل جاكرينا وجزائر الكانج يتلوها بحر عجاج متلاطم بالامواج وامامهم واديًا صغيرًا بين اكمتين وفيه حرش صغير قريب منهم · فاسرعوا الى هذا الحرش ليدخلوه فوجدوا نباتات وشجيرات تسد الطريق لالتفافها على اشجار الحرش · فتناول الفرسان سيوفهم وفتحوا بها طريقًا فدخل الجميع تحت الاشجار الضخمة وهم يحسبون انهم اصبحوا في مأمن من الفيضان والمطر والزوبعة · ولكنهم لم يتنفسوا الصعداء برهة حتى دهمتهم السيول من كل جانب تنصبُّ في ذلك الوادي لان المطر كان غزيرًا

فعاودهم القلق والخوف وجعلوا يضربون اخماسًا لاسداد ·

وبعد برهة حانت من احدهم التفاتة فابصر من خلال الاشجار بصيص نور بعيد فاسرع حامل المصباح الى مكان النور ليوقد مصباحه . غير انه لم يغب بضع دقائق حتى عاد ركضاً وهو يلهث ويصيح بكل قواه « ابعدوا ابعدوا ففي هذا المكان خارجي »

الفصل التاسع

رجل بلا ذمة ولا دين

فاسرع الدكتور وتناول مسدسه وهو يظن ان هنالك وحشاً ضارياً ثم سال الرجل : « ما هذا الخارجي »

فاجاب الرجل وهو يلهث تعباً وخوفاً . « هو رجل بلا ذمة ولا دين »

فقال رئيس الفرسان للدكتور « ان الخارجي هندي من ادنى الطوائف وشريعتنا تحلل لنا قتله اذا لمسنا . واذا جالسناه حُرمنا نعمة الدخول الى هيكل من هيا كل الاقمار التسعة ووجب علينا ان نطهر انفسنا بالاستحمام تسع مرات في نهر الكانج وان يدهننا البراهمة ببول البقر تسع مرات من

الفرق الى القدم »

فصرخ جميع رجال الدكتور وكلهم من الهنود كما تقدم « لا نجالس خارجياً ولا ندخل مكان خارجي »

فسال الدكتور حامل النور « ومن اين علمتَ ان الرجل خارجي اي بلا ذمة ولا دين كما زعمت » فاجاب الرجل « علمتُ ذلك من انني لما فتحت باب كوخه رايته جالساً بجانب كلبه وهو يقدم الماء لامرأته في قرن البقر . ولا يخفى عليك ان الكلب دنس والبقر من معبوداتنا »

فصاح الجميع مرة ثانية « تباً له فنحن نكره رؤيته »

فنظر اليهم الدكتور باسماً ثم قال « اقيموا انتم هنا ان اردتم . اما انا فلا يمنعني شيء من اتقاء خطر الزوابع والسيول فعندي جميع طوائف الهنود سواء »

قال ذلك ثم تأبط كتابه وكيساً وضع فيه امتعته ومسدسه وغليونه ثم تركهم وسار نحو مكان الخارجي مستهدياً ببصيص النور المنبعث منه

الفصل العاشر

انسان عائش في الطبيعة عيشاً اهنأ من عيش المدن
وهو ارقى وافضل من اناسها

وما زال الدكتور سائراً في الظلام نحو النور حتى انتهى الى كوخ قائم تحت شجرة عظيمة فدنا من الباب وقرعه قرعاً لطيفاً . ففتح له الباب رجل لطيف الهيئة ولما نظر هذا الرجل الدكتور تنحى عن الباب وقال بادب

« عفواً ياسيدي فانا خارجي لا استحق ان تشرف بيتي . اما اذا كنت تطلب الاحتماء من الزوبعة فاهلاً بك وسهلاً »

فدهش الدكتور من هذه اللهجة واجابه باللغة الهندية التي كان يعرفها كما تقدم

« شكراً لك يا اخي وانا اقبل دعوتك بابتهاج وسرور »

ثم دخل الدكتور الى الكوخ مستأنساً بالنور بعد الظلام وبالاجتماع بعد الوحدة فرأى كل ما في داخل الكوخ بسيطاً نظيفاً مرتباً وابصر في احدى زواياه امراة خاشعة الطرف تهز



الخارجي يدخل الدكتور الى كوخه وهو الكوخ الهندي
الذي عليه مدار الكلام

بلطف سرير ولدها

اما الخارجي فانه ما دخل الدكتور الى بيته حتى خرج

فاحتمل حطباً كثيراً وتناول سلة ثمار من ثمار الموز والنارجيل ثم خرج يفتش عن رجال الدكتور . ولما اهتدى اليهم وضع الحطب والسلة بعيداً منهم وخاطبهم بلطف عن بعد قائلاً

«بما انكم لا تتنازلون للدخول الى كوخي فاذنوا لي بان اقدم لكم ما تسدون به حاجتكم فلا ريب انكم في جوع وان المطر قد بلل ثيابكم فخذوا هذه ثمار مغلقة لم تمسها يد فاخرجوها وكلوا منها وهذا حطب اضرموه تجفيفاً لملابسكم وابعاداً للغمورة عنكم . وليكن الله حارساً لكم »

ثم عاد الخارجي الى الكوخ مسرعاً فمد بساطاً ووضع عليه شيئاً من العنباء والبطاطس المشوية والموز المشوي وقدراً من الارز المطبوخ بالسكر وحليب النارجيل . ثم دعا الدكتور الى هذا الطعام الطبيعي البسيط بقوله

« لا بد انك علمت ياسيدي انني خارجي لا استحق ان ادنو من احد او ان يدنو مني احد غير اني ارى في ملابسك ما يدلني على انك لست هندياً فاذا رايت ان تتنازل الى تناول ما اعده لك خادمك الحقير اوليتني نعمة وجميلاً »

فاثرت هذه اللهجة في نفس الدكتور احسن تاثير فنهض

الى بساط الطعام مسروراً . واما الخارجي فتنحى مع امرأته وولده في احدى زوايا الكوخ . فساء ذلك الدكتور والتفت اليه قائلاً

« لماذا لم تجلس معي على الطعام . انت افضل مني ايها الرجل لاني رايتك تحسن الى من يسيء اليك (يعني بذلك تقديمه الطعام والحطب الى رجاله) فاذا لم تجالسني على هذا الطعام حسبت انك تظنني شريراً مثل اولئك الرجال وحينئذٍ اترك الكوخ عائداً من حيث اتيت ولو اغرقني السيل واكلتني الوحوش »

فنهض الخارجي وجلس بجانب الدكتور واخذ يأكل معه فاكل الدكتور مسروراً لانه وجد ملجأً من الزوبعة والمطر . وكان الكوخ مبنياً في اضيق مكان في الوادي تحت دوحة من التين المندي وهي شجرة ضخمة ذات ورق كثيف عريض لا ينفذه ماء المطر . وكانت الزوبعة في الخارج تزئر زئيراً شديداً تمازجه صعقات رعد هائلة والريح تهب هبوباً شديداً يكاد يقتلع الاشجار من اصولها ومع ذلك فقد كان كل ما في داخل الكوخ هادئاً ساكناً حتى نور السراج ودخانه

فراق الدكتور هذا السكون السائد حول الهندي وامرأته وسط هياج الطبيعة وعناصرها · وكانت المرأة جالسة قريباً من سرير ولدها تهز سريره بقدمها وتصنع له بيديها طوقاً من الزهر لتزينه به · وكان الرجل ينظر اليها والى ولده الحين بعد الحين بعين طافحة حباً وحنواً وعلى وجهه لوائح الدعة والبساطة وفراغ البال وراحة الضمير · فكأن كل ما في ذلك الكوخ المنفرد في البرية وسط الطبيعة الثائرة الهائجة كان مستريحاً هادئاً حتى كلب الكوخ وهره اللذين كانا نائمين بجانب موقد النار الواحد بقرب الآخر · وكان الكلب يفتح من حين الى حين عينيه ويتنهد كلما وقع نظره على سيده

الفصل الحادي عشر

بعد الطعام الكلام

ولما فرغ الدكتور من تناول الطعام اتاه الهندي بنار لاشعال غليونه واشار الى امراته فجاءت بسلتين من النارجيل واناء مملوء شراباً مصنوعاً من الماء والعرق وعصير الليمون الحامض وماء قصب السكر فتناول الدكتور شيئاً منه ثم جلسا للحديث فقال الدكتور

« لقد اعجبني ايها الاخ عيشك البسيط في هذه الارض القفراء وسط هذه الغابة الكثيفة . وكأني اقرأ على جبينك ما انت فيه من خلو البال وراحة الضمير . غير اني اسالك الا تخاف الزوابع والصواعق في هذا المكان المنفرد فان كوخك لا يقيه منها غير هذه الشجرة والاشجار تجتذب الصواعق كما تعلم »

فاجاب الهندي : ان الصاعقة لا تقع البتة على شجرة التين الهندي

فقال الدكتور مستغرباً « هذا امر كنت اجهله واني اشكرك على هذه الفائدة ولكن ما السبب في ذلك هل ان لشجرة التين

الهندي كهربائية سلبية كشجرة الغار»

فقال الهندي «لا افهم معنى كلامك ياسيدي . وانما امراتي تقول ان السبب في ذلك ان برهما تفيأ ظلها يوماً من الايام فخصها بهذه المزية . واما انا فاني ارى ان الخالق الذي خصها بورق كبير غليظ لا ينفذه المطر وقاية للبشر الذين يلجئون تحتها في هذه الاقطار الشديدة الامطار راى ان يتم نعمته عليهم فخصها بمزية الوقايه من الصواعق كما خصها بمزية الوقاية من المطر»

فقال الدكتور معجباً بقول الهندي « ما اسمى كلامك واعظم ثقتك بالعناية الالهية . وكأني علمت من جوابك امرًا كنت اجهله وهو ان ثقتك بالله هي التي جعلتك مستريح الخاطر ناعم البال في هذه الوحدة . فقل لي ما هو مذهبك فقد راجعت في كتاب معي اسماء جميع طوائف الهنود فلم اجد فيه ذكرًا لطائفة « الخارجيين » فمن اية طائفة انت . واين وطنك . وفي اي اقليم معبدك

فاجاب الهندي بشيء من الرزانة :

« وطني هذا العالم الفسيح . ومعبدي هذه الطبيعة الواسعة .

فاني كلما اشرقت الشمس وقفتُ امامها في وسط الطبيعة اسبح خالقها . وكلما غربتْ شيعتهـا بنظري وحمدت الله عداد النعم التي منحني اياها . ولا همّ لي في معيشتي هذه غير خدمة امراتي وولدي والعناية بكل ما هو لي حتى كلبي وهري . وانا كما تراني مسرور بمعيشتي في وسط الطبيعة سرور الولد في حضن امه او العصفور في عشه . ومتى حان اجلي غداً استقبلتُ الموت باسماً لاني لا احسبه شرّاً ولا الماً وانمـا انتظره الآن كما انتظر نوماً لطيفاً في آخر النهار» .

فاخذ العجب من الدكتور كل مأخذ لهذا الجواب البديع فسأل الهندي :

واي كتاب ارشدك الى هذه المبادىء الجميلة

فاجاب الهندي « كتاب الطبيعة ياسيدي »

فقال الدكتور « لا ريب انه كتاب عظيم ولكن من علمك القراءة في هذا الكتاب »

فاجاب الهندي « المصائب ياسيدي . فاني ولدت في طائفة يسميها الهنود « خارجية » لانهم يعتبرونها خارجة عن طوائفهم المعروفة ولذلك يقولون انها نجسة رجسة ولا يقربونها .

فلما شببتُ وجدت نفسي عاجزًا عن ان اكون هنديًا دينًا ووطنًا فعزمت على ان اكون انسانًا فلجأتُ الى الطبيعة لاعيش فيها حرًا مستقلاً بعيدًا عن ظلم اخواني بني الانسان »

فقال الدكتور « وما هي الكتب التي تستعين بها على صرف وقتك في هذه الوحدة »

فاجاب الهندي باسماً « اني لا اعرف القراءة ولا الكتابة ياسيدي »

فهزَّ حينئذٍ الدكتور راسه وقال له « انك كفيتَ نفسك شكوكًا كثيرة . اما انا فاني مرسل من انكلترا لجمع الكتب والاوراق بحثًا عن الحقائق وسعيًا وراء ما يرفع شان البشر ويزيد راحتهم . وقد عانيتُ في هذا السبيل كثيرًا من المشاقّ والاتعاب وفي اعتقادي ان تعبي قد ذهب سدىً لانني بعد ما وجدته من اختلاف البشر صرت ارى السعي وراء الحقيقة عبثًا ولهوًا بل حماقة وجنونًا اذ هب انا وجدنا الحقيقة التي نفتش عنها فمن يقبلها ويسمعها دون ان ينقلب بالسخط علينا »

فاجاب الهندي « اني وان كنتُ على ما تعلم من الجهل

ياسيدي الا انني استاذنك في ابداء رابي . اني اعتقد ان الانسان محتاج الى معرفة الحقيقة لذاتها لا لامر آخر اذ على الحقيقة يتوقف هناء الانسان وسعادته و بدونها لا يكون الانسان الا وحشاً طاغياً جاهلاً فاسد الاخلاق متعلقاً بالاوهام والترهات تبعاً لاغراض الذين يتولون تربيته . فالبحث عن الحقيقة من واجبات الانسان ومعرفتها حق له »

الفصل الثاني عشر

خارجي اعظم من راس البراهمة
جواب الاسئلة الثلاثة

وكان الدكتور لا يزال يفتكر في المسائل الثلاث التي القاها على راس البراهمة فلما راى اجوبة الهندي السديدة واراءه الصائبة خطر له ان يلقيها عليه ايضاً ليرى رايه فيها فقال له

« قلت ان الانسان محتاج الى معرفة الحقيقة لذاتها لا لامر آخر وانه يكون بدونها وحشاً لا انساناً فهل لك ان تدلني على الطريق الموصلة الى الحقيقة . ولا تقل ان الحواس هي

الطريق اليها فان الحواس تكذب وتخدع · ولا تقل العقل فاني لا ارى العقل الا صورة المصالح الشخصية ولذلك ترى هذا الخلاف العظيم بين البشر · انظر الى العالم هل ترى فيه امتين بل قبيلتين بل طائفتين بل عيلتين بل رجلين بافكار واحدة · فان لم يكن العقل هو الطريق الى الحقيقة فما هي الطريق اذاً »

فاجاب الهندي « ان العقل يخدعنا دائماً كما ذكرت ولذلك لا يصح ان يكون الطريق الى الحقيقة وانما الطريق الى الحقيقة والمرشد الامين اليها هو القلب البسيط السليم »

فاجاب الدكتور · قد تكون مصيباً في قولك ايها الاخ وكأنني فهمت الآن من كلمتك هذه سبب اختلاف افكار الناس وتباين آرائهم · فهم يتفقون شعوراً ولكنهم يختلفون حكماً · فان مبادىء الحقيقة تدخل الى نفوسهم فيشعرون بها جميعاً ولكن كل واحد منهم يستنتج ويحكم طبقاً لمصلحته وهواه · فالمضل هنا هو العقل لا القلب · فاذا كان القلب بسيطاً نقياً سليماً كما ذكرت شعر بالحقيقة وحكم بما تمليه عليه دون ان يؤثر فيه مؤثر سواها · اليس هذا معنى كلامك

فقال الهندي . لقد شرحتَ فكري شرحاً لا اقدر عليه. ولكني اشبه تشبيهاً يُعرب عما في ضميري . ان الحقيقة كندى السماء . ولا يبقى الندى نقياً الا اذا وُضع في اناء نقي .

فصاح الدكتور مدهوشاً « احسنت احسنت . نعم ان الحقيقة كندى السماء ولذلك فهي لا تبقى نقية الا اذا حُفظت في قلب نقي . ولكن قل لي اين نجد الحقيقة . افي مكاتب العلم ام في صدور الناس . لقد طفتُ في سياحتي بلاداً كثيرة ونقبت في كثير من المكاتب وناظرت كثيرين من العلماء فلم اجد اينما سرتُ وحيثما حللتُ سوى آراء متناقضة ومذاهب مختلفة وشكوك واوهام . فاذا كانت الحقيقة لا توجد في مكاتب العلم وصدور الناس فاين نجدها اذاً »

فاجاب الهندي « لو كنا لا نصل الى الحقيقة الا بواسطة البشر لارتبنا فيها واسأنا الظن بها . فدع الناس وشانهم اذا اردت البحث عن الحقيقة ولا تفتش عنها في اقوالهم واعمالهم فان اقوالهم واعمالهم تزيدك تيهاً وضلالاً . وانما فتش عن الحقيقة في الطبيعة . وكل من يبحث عنها خارج الطبيعة يضلّ سبيلاً . فان الطبيعة مصدر كل ما في الكون كما ان الله

مصدر كل ما في الطبيعة . ولغة الطبيعة لطيفة بسيطة تفهمها ابسط العقول فضلاً عن كونها ثابتة ابدية لا يطرأ عليها تغيير او تبديل . واما لغة البشر فانت ادرى بما فيها من الابهام والغموض وما يطرأ عليها من الانقلاب »

فقال الدكتور « يؤخذ من قولك ان الطبيعة مصدر الحقائق كلها . وهو قول يصح في الحقائق الطبيعية ولكنه لا يصح في الحقائق التاريخية . كيف الوصول الى معرفة ما حدث منذ الف او الفي سنة دون الاستعانة بالكتب . فان قلت بالنقل والتواتر اجبتك ان الانسان انسان في كل زمان ومكان فمن يركن الى قوله وينزله منزلة الحقيقة الثابتة التي لا تنقض فقد ركن الى الجهل والضعف والتشيع والتحريف والنسيان . فلا غنى لنا اذاً عن الكتب اثباتاً للحقائق التاريخية »

فضحك الهندي وقال « ولكن من كتب هذه الكتب . اليس الانسان . ومع ذلك فاية حاجة بنا الى التاريخ وكتبه واي تاثير للتاريخ في سعادتنا على هذه الارض . بل اية علاقة بين السعادة وذكر حوادث مضت وايام خلت . ان تاريخ ما

كان لهو تاريخ ما هو كائن وما سيكون »

فاجاب الدكتور متعجباً . لقد سئمت بهذا الراي . يجب ان نبحث عن الحقيقة في الطبيعة وان لا نعبأ بما هو خارج عنها اذ لا علاقة له بسعادتنا . ولكن ما الواسطة التي ندرك بها هذه الحقيقة اعني دليلنا الذي نتوصل به اليها . انا نرى الحيوانات في الطبيعة في حرب مستمرة فهي تقتتل وتاكل بعضها بعضاً . فهل يجب ان يصنع الانسان بالانسان ما يصنعه الحيوان بالحيوان .

فاجاب الهندي . كلا ثم كلا . لان في قلب الانسان اساساً طبيعياً لحقوقه وواجباته وقد وضع الخالق هذا الاساس في داخل النوع البشري كما توضع المنائر على شواطيء البحار لهداية السفن . وهذا الاساس هو هذه القاعدة البسيطة . اصنع بالناس ما تريد ان يصنع الناس بك : هذا هو دليل الانسان وقاعدة واجباته .

فازداد الدكتور دهشة لاصالة راي الهندي ثم ذكر اجوبة رئيس البراهمة وقابلها باجوبة الهندي فعرف من هذه المقابلة كيف تحط الاوهام العقول وكيف يرفعها الانطلاق من

اسر الاوهام

ثم ان الدكتور قال للخارجي . انني اسلم بصحة ارائك فيما يختص بالحقائق الادبية ولكن ما قولك في الحقائق الدينية والطريق اليها . ان العالم مملوء بالاديان المختلفة والمذاهب المتباينة التي تفرق الشعوب وتقسم الامم فكيف الوصول الى الحقيقة في وسط تلك المذاهب والاديان المختلفة .

فاجاب الهندي . قلت لك فتش عن الحقيقة في الطبيعة دون سواها . فاذا رمت الحقيقة الدينية فلا تخرج عن هذه القاعدة . انظر الى الطبيعة بقلب بسيط نقي تجد روح الله مرفرفاً على وجهها وتقرا آيات قدرته وحكمته في صفحاتها . اما الخلاف في المذاهب والاديان فاضرب عنه صفحاً فان لدى البشر من المصائب والجهل والشقاء ما يجب ان يشغلهم بحب الله تعالى وعبادته عن البحث فيه والمناظرة في شؤونه .

فلم يتمالك الدكتور ان صاح ملء فمه . احسنت احسنت ولا سد فوك . وليت المشتغلين بتقسيم البشر وتفريقهم يسمعون هذا الكلام . بقي لي الآن سؤال واحد وهو هل اذا وجد

الانسان الحقيقة يجب عليه ان يُطلع الناسَ عليها فاننا كثيراً ما راينا البشر يضطهدون من يقول لهم الحق . فما رايك في هذا .

فاجاب الهندي . لا ارى من الواجب ان تقول الحقيقة للاشرار والاردياء الذين يكرهونها ولكنه واجب محتوم ان تقولها للصالحين والعقلاء الذين يحبونها . ومَثل الشرير والحقيقة مَثل تمساح ولؤلؤة . فانك اذا القيت لؤلؤة الى التمساح انقضَّ عليها ليسحقها باسنانه لا ليزين بها اذنه اذ لا اذن له . ولما يعجز عن كسرها يلقيها وينقضُّ عليك ملتهباً حقداً وغضباً .

فراق الدكتور هذا التشبيه الجميل فقال معجباً . سلمت برايك هذا ايضاً ولكن لي عليك اعتراض . وهو انه يؤخذ من كلامك ان الناس الاشرار يضطهدون كل من يحب الحق ويقوله لهم . فمن يجترىء والحالة هذه على التصريح بالحقيقة وتعليمهم اياها اذا كان نصيبه الاضطهاد والعدوان .

فاجاب الهندي . للبشر مدرسة عليا تعلمهم الحقيقة وتسمعهم صوتها اذا سكتت اصوات الناس عن النداء بها . وهذه المدرسة هي : مصائب الحياة .

فقال الدكتور معترضاً « اما في هذا فلست من رأيك ايها الرجل الفاضل لاني اعتقد ان المصائب تحط قوى النفس وتزيد شقاء الانسان . وكلما ازداد الانسان شقاء ازداد تلوثاً بحمأة الضعة والدناءة . فما تقول في هذا »

فاجاب الهندي « ان قولك هذا يصدق على الانسان اذا لم يبلغ اقصى درجات المصائب في هذه الحياة . اما الذين يصلون الى قمة المصائب فان غشاء كثيفاً يسقط عن عيونهم فيرون الحقيقة مجردة من كل شيء . ومَثل المصائبَ مثل الجبل الشامخ الوعر . فانك تتعب في صعوده ولا تجد في وجهك الا حجارة وشوكاً ولكنك متى بلغت قمة هذا الجبل ابصرتَ منظراً طبيعياً جميلاً : السماء فوق رأسك والارض بمناظرها الطبيعية الرائقة منبسطة تحت قدميك »

فصاح الدكتور مدهوشاً

« ما اجمل هذا التشبيه واصح هذا الكلام . اجل ان المصائب كالجبل الذي ذكرته وكل واحد منا امامه جبل يجب عليه ان يصعده . اما جبلك انت ايها الرجل الفاضل فيلوح لي انه كان شاهقاً جداً لاني اراك افضل من جميع البشر الذين

عرفتهم ولعل ذلك لانك كنت اتعسهم · فقبل ان اسألك ان تقصّ عليّ شيئاً من تاريخ حياتك ارجو ان تذكر لي السبب الذي من اجله صارت طائفتكم مذلولة مضطهدة

الفصل الثالث عشر

سبب اضطهاد البراهمة الخارجيين

فقال الخارجي

ان السبب في ذلك زعم البراهمة انهم خرجوا من راس برهما وان الخارجيين خرجوا من رجليه · و يزيدون على ذلك قولهم ان برهما طلب مرةً في مدة سياحته على الارض من رجل خارجي شيئاً ليأكل فقدَّم له الخارجي لحماً بشرياً فمنذ هذا الحين بدأ تاريخ ذلنا واضطهادنا وحُظر علينا دخول المدن وابيح دمنا لكل من ندنو منه

فقال الدكتور مستغرباً

يا للحماقة والاستبداد كيف استطاع البراهمة حمل اخوانكم الهنود على بغضكم واضطهادكم واقناعهم بصحة ذلك الاختلاق

فاجاب الهندي . بتعليمهم ذلك منذ الصغر كما تُعلم البغاء الكلام

فقال الدكتور . وماذا صنعتَ انتَ للخروج من هذه الهاوية هاوية التعصب والجهل التي القاك البراهمة فيها . اني لا اعرف شيئاً في العالم اشد ايلاماً للانسان من جعله منحطاً في عيني نفسه وهذا بمثابة حرمانه اعظم تعزية له لان اعظم تعزية للانسان في العالم انما هي حسن ظنه بنفسه

فاجاب الخارجي

سالتُ نفسي اولاً عن صحة الرواية التي يروونها عن برهما فما رايت احداً يرويها غير البراهمة . ثم نظرت فرايت للبراهمة مصلحة في هذه الرواية فانهم ما زعموا ان خارجياً اهان برهما وقدم له لحماً بشرياً الا انتقاماً من الخارجيين الذين لا يعتقدون بقداسة البراهمة والوهية مصدرهم . ثم قلت في نفسي: هب هذه الرواية صحيحة فالله عادل ولا يشاء ان تؤخذ طائفة كبيرة بجريمة واحد منها خصوصاً اذا لم يكن للطائفة يد في تلك الجريمة . وهب انه كان لطائفة الخارجيين يد في هذه الجريمة فاي ذنب لابنائهم وابناء ابنائهم . هل ان الله يسمح

ان يؤخذ الاباء بجرائم الابناء قبل ولادتهم فكيف اذاً يصح ان يقال انه يسمح بان يؤخذ الابناء بجرائم الآباء والاجداد . ولنسلم بان العدالة تقضي بان احمل انا تبعة الخطيئة التي ارتكبها رجل غيري افما آن ان تُحسب حياتي وحياة اجدادي التعيسة كفارة عن الذنب الذي عُزي اليَّ . ولقد مرَّ على الطائفة الخارجية الوف من السنين ولا تزال تُرزق حتى الآن فلو كان الله ساخطاً عليها افكان يُبقي لها الحياة كل هذه المدة . وهل يمكن بقاء شخص او شيء وقع عليه غضب الله . كلاً . ولو كنتُ من المغضوب عليهم لما انبتت لي الارض نباتاً ولما نما شيء مما تزرعه يداي . ثم قلت لنفترض هذا وذاك فاني ارى الله مع سخطه عليَّ يغمرني بنعمه ويحسن اليَّ أفلا يجب ان اتشبه انا بذلك واحسن بما في امكاني الى اولئك الذين كان يجب ان ابغضهم وامقتهم

الفصل الرابع عشر

معيشة انسان خارج الهيئة
الاجتماعية

فقال الدكتور . وكيف كنت تحصل حاجاتك وتقوم باود معيشتك بعد ان لفظتك الهيئة الاجتماعية من وسطها

فقال الخارجي

«بعد ان خرجت من الهيئة الاجتماعية قلت في نفسي : بما ان جميع البشر يضطهدونك و يتخلون عنك فاسع انت بنفسك لنفسك . ان مصابك وان كان كبيراً فانه ليس فوق وسعك وطاقتك . والمطر مهما كان غزيراً فانه لا يقع على العصفور الا نقطة نقطة . فقصدت الغابات وضفات الانهار لعلي اعثر فيها على قوت اسد به رمقي . فما كنت اجد الا بضع ثمار برية فضلاً عن تعرضي للوحوش الضارية . فعرفت حينئذٍ ان الطبيعة لم تخلق الانسان ليعيش منفرداً وتحققت انني مرتبط ارتباطاً مكيناً بهذه الجمعية البشرية التي تلفظني من وسطها . فتركت الغابات والانهار وقصدت الحقول وهي كثيرة عندنا

فكنت اجد فيها شيئاً من الحبوب مما يبقى على اثر الحصاد فصرفت مدةً في التطواف من اقليم الى اقليم وانا اتبلغ بما كنت اجده من بقايا الزراعة في هذه الحقول · وكلما كان يفضل عني شيء من الحَبّ كنت ابذره في الارض قائلاً : اذا لم انتفع به بعد نبته وبلوغه فسينتفع به سواي · فكنت اشعر بشيء من الراحة وبتناقص تعاستي كلما رايت نفسي قادراً على صنع شيء من الخير

« وكانت نفسي تحدثني بدخول المدن لمشاهدتها ورؤية عظمتها لانني لم اكن شاهدت مدينة قط وانما كنت اشاهد من بعيد بعين الدهشة والعجب اسوارها الضخمة وابراجها الشاهقة وقيام السفن والقوارب مصطفةً على شواطىء انهارها وازدحام العربات المشحونة ببضائع متنوعة في طرقاتها وحركات جنود الحرب الذين كانوا يتوافدون من اقصى الاقاليم لحراسة المملكة وحفظ الراحة العمومية ووفود سفراء الدول الذين كانوا يأتون بعظمة وابهة من الممالك الاجنبية تاييداً للسلم والاتحاد · وكنت كلما رايت في طريقي بعض هؤلاء الوفود اقترب منهم بقدر ما يجوز لي واتامل بدهشة فيهم وفي الغبار الذي كان

يثور وراءهم . وكلما ذكرت المدينة التي كانوا سائرين نحوها كنت اجد في نفسي شوقاً عظيماً اليها واسمع لها من بعيد هديراً عميقاً كاصوات تكسر الامواج على الصخور . فكنت اقول في نفسي : ان جمهوراً غفيراً يجتمع في بقعة واحدة ليتعاون ويتقاسم اشغاله وحاجاته كانه عيلة واحدة لجدير بان يكون سعيداً هنيء العيش . فكانت لذلك تشتد رغبتي في مشاهدة احدى المدن . وقد كنت في ذات يوم امام مدينة « دلهي »



الخارجي مدهوشاً امام المدينة

بينما كانت هذه الافكار تجول في خاطري فقلت في نفسي ما الذي يمنعني من الدخول الى هذه المدينة في الليل اذا كنت لا استطيع دخولها في النهار . ان للفأر اعداء كثيرة ومع ذلك فانه يخرج من وكره في الليل مقتنعاً بنور النجوم ومستهدياً بها . ثم اشتدت عليّ هذه الافكار فعزمت على الدخول تحت جنح الظلام الى تلك المدينة .

الفصل الخامس عشر

رجل لم يدخل مدينة قط
ووصفه شرورها

« فانتظرت حتى ارخى الليل سدائله الكثيفة ثم قصدتها ودخلت اليها من باب لاهور فشاهدت في اول شارع مررت فيه ابنية شاهقة قائمة على قناطر فيها حوانيت الباعة والتجار . ثم رايت كثيراً من الفنادق مقفلة الابواب واسواقاً واسعة يسود فيها سكوت عميق . فاجتزتها واوغلت في داخل المدينة فوجدت نفسي على مقربة من حي الاعيان وكله قصور وحدائق قائمة على ضفات نهر دجنا . وكانت تخرج من هذه القصور

رنات الآلات الموسيقية واصوات غناء النساء وعزفهن الشجي على ضفة النهر · فتقدمت من احدى الحدائق لاتمتع بلذة النظر والسمع هنيهة فطردوني بالسياط عن الباب مع كل الصعاليك الذين كانوا وقوفاً عليه · وبينما كنت عائداً من حي الاعيان مررت ببعض المعابد الهندية فرايت فيها جماهير من البشر جاثين برعدةٍ ورهبـة والزفرات تتصاعد من صدورهم والدموع تجري من عيونهم · فهالني هذا المشهد المريع فاسرعت فراراً من رؤية آثار الشقـاء والاوهام · ثم مررت بمنازل الاوربيين وحولها الحراس يصرخون دائماً: «كابردار» اي احذروا لانفسكم · فسرت في طريقي فوصلت الى بناء شاهق علمت انه سجن من سماعي جلجلة القيود فيه واصوات التنهد والزفير الخارجة منه · وبعد ذلك سمعت صراخاً ونداء متألم خارجاً من بناء آخر وتلا ذلك خروج مركبة مشحونة جثثاً بشرية فعلمت انه مستشفى · وفيما انا سائر كنت ارى هنا لصوصاً هاربين والشرطة في اثرهم · وهناك جماهير من الفقراء يلتمسون على ابواب الاغنياء فضلات الموائد والمآدب ولا يثنيهم عن طلبها الضرب والاهانة · وهنالك نساء يبعن

شرفهن ليا كان بثمنه خبزاً · وما زلت اواصل السير حتى انتهيت الى القصر العظيم الذي يسكنه سلطان الهند الكبير

« فرايت هذا القصر قائماً في وسط ساحة فسيحة الارجاء ضُربت فيها خيام لفرق عديدة من الجنود والحراس · وكانت هذه الفرق يمتاز بعضها عن بعض بمشاعل واعلام وعصي طويلة في رؤوسها اذناب بقرثيبية · وكان القصر محاطاً من كل الجهات بخندق عريض تغمره المياه وعلى جانبيه المدافع صفوفاً. فلبثت بازائه اقلب طرفي في ابراج حصونه الشاهقة التي كانت كانها تنطح السحاب واسواره الطويلة التي كانت لطول امتدادها لا يُدرك الطرف آخرها · فاخذتني الرغبة في الدنو منها والدخول اليها ولكن السياط التي كانت معلقة في احد الجدران ازالت هذه الرغبة من نفسي · فوقفت بعيداً في احدي الزوايا بين جماعة من الزنوج الارقاء كانوا يصطلون على نار اوقدوها واذنوا لي بالوقوف بينهم · فمن هناك اخذت اتامل بدهشة وتعجب فخامة القصر الملكي وصرت اقول في نفسي: هنا يقيم الانسان الذي هو اسعد بني الانسان · هنا يقيم من

يزعمون طاعته فرضاً من فروض الايمان . هنا يسكن مَن يأتي السفراء لتمجيده من اقاصي البلدان . هنا منزل مَن في جوفه تُفرغ اموال الاوطان . هنا منزل مَن لملذاته تجري المراكب في البحار . ومَن حرصاً على حياته يحمل السلاحَ الوف من البشر ويحرسون منزله وهم سكونٌ في الليل والنهار

وبينما كنت مشتغلاً بهذه التاملات واذا باصوات التهليل والابتهاج قد علت من كل جهة . فالتفت فرايت ثمانية جمال مزينة وهي تنوءُ تحت حملها الثقيل . فسألتُ ما محمولها فقيل رؤوس العصاة يبعث بها الى جلالته قادة الجيش من اقليم دبكان حيث يُضرم احد ابناء السلطان نار الحرب والعصيان على والده منذ ثلاث سنوات . ولم تنقض فترة من الوقت حتى رايت فارساً على جواد ينهب الارض نهباً وهو يقصد القصر فسالت عنه فقيل لي انه رسول منفَذٌ ليبلغ السلطان خيانة احد قواده الذي سلم سلطان الفرس احدى المدن الهندية التي على الحدود . ولم يكد يمر هذا الفارس حتى تلاه فارس آخر منفَذ من والي بنغال ليبلغ السلطان ان الاوربيين الذين منحهم السلطان حق انشاء المكاتب التجارية قد بنوا قلعة على ضفة نهر الكانج وامتلكوا

طريق السفر فيه . وبعد بضع دقائق خرج من القصر ضابط في مقدمة شرذمة من الجند وقد عهد السلطان اليه ان يقبض على ثلاثة من اعيان الهنود وزجهم في السجن لاتهامهم بالاشتراك في المؤامرة مع اعداء السلطنة . وقد كان بالامس امر بسجن احد العلماء المسلمين لانه اثنى على سلطان الفرس وقال ان امبراطور الهند كافر لانه يشرب الخمر . ويؤكد بعضهم انه امر بخنق احدى نسائه والقائها في لجة نهر دجنا مع اثنين من ضباط حرسه لاتهامهم بان لهم ضلعاً مع ولده الذي خرج عليه . وبينما كنت اتامل هذه الحوادث وتفاصيلها واذا بعمود من النار قد ارتفع بغتة من مطابخ القصر الى السماء فاضاء حصون القصر والخندق والمكان وكل ما حوله من الابنية . ثم تلا عمود النار دخان كثيف قاتم صعد الى العنان واختلط بالسحاب . فدوت عند ذلك في القصر صنوج الحزن دوياً مخيفاً وانتشرت الجنود قرب القصر يحطمون الابواب ويدفعون الناس بالسياط الى النار ليخمدوها . وكان حول القصر عدة من الفيلة فلما احست بحرارة النار ثارت وهجمت نحو الجمهور وجعلت تدفعهم بخراطيمها عن القصر بينما كانت الجنود تدفعهم اليه بسياطها . فاصابني من

الجانبين الم علمت منه مبلغ الالم الذي يصيب صغار الناس عند دنوهم من الكبار . اجل ان الكبار كالنار تُحرق كل شيء حتى اليد التي تُلقي فيها بخوراً متى دنت منها كثيراً . فحاولت الخروج من ذلك المكان فراراً من الالم فلم استطع ذلك الا بشق النفس وبعناية من الله . ولما تمكنت من الفرار ابتعدت ركضاً حتى انتهيت الى اكواخ حقيرة فتنفست الصعداء ووقفت هناك اقول : لقد نلت ما تمنيت وشاهدت احدى المدن .
لقد شاهدتُ مراكز اولئك الذين يسمون انفسهم رؤساء الشعوب مع انهم عبيد لرؤساء كثيرين . اجل انهم عبيد شهواتهم واطماعهم واوهامهم وبخلهم . انهم يخافون حتى في نومهم من اولئك الاشقياء المحيطين بهم واللصوص والشحاذين والفواسق ومضرمي النار حتى جندهم وعلمائهم واعيانهم وكهانهم . فاذا كانت هذه هي حالة المدينة في الليل فكيف بها في النهار ؟ . ان عناء الانسان يزداد بازدياد امانيه وحاجاته فما اشد عناء الملك اذاً لانها كثيرة امانيه وحاجاته . فهو يرتجف دائماً من الحروب الداخلية والخارجية ومن قواده وحرسه وكهنته ونسائه واولاده .

ومهما كانت حصونه حصينة وخنادقها واسعة فانها لاتمنع اشباح الوهم من الوصول اليه ولا الاحزان من النفوذ الى نفسه . اما انا فانني لا اخاف شيئاً وليس لظالم سلطان على نفسي ولا على جسدي . بل انني حرٌ اعبد الله بحسب الطريقة التي يرسمها ضميري ولا اخاف احداً من البشر ولا يقدر احد ان يعذبني اذا لم اعذب انا نفسي . فلا ريب في انني انا « الخارجي » المضطهد المذلول اقل شقاء وتعاسة من الملك

«ولما قلتُ هذا خررت ساجداً على الارض وشكرت الله الذي اراني مصائب اعظم من مصائبي ليجعلني احتمل حياتي ويعلمني القناعة والرضى والتسليم

«ومنذ هذا الحين صرت اجتنب داخل المدينة ولا اقرب الا اطرافها . فكنت آتيها كلما جنَّ الليل واجول في اسواقها الخالية وشوارعها المقفرة فيخيل لي في هدوء الليل وسكونه انه ليس في المدينة حيٌّ سواي وانني ربُّ تلك المدينة العظيمة . غير انني لم اكن اجد في تلك المدينة التي كنت احسبها ملكاً لي شيئاً امسك به رمقي فتركت الاحياء لما لم اجد فيهم مساعداً وصديقاً ولجأت الى الاموات . فكنت اذهب الى المدافن

واتغذى بالمآكل التي يضعها الاهالي على القبور زكاة عن نفوس موتاهم · وكان يحلو لي التامل هناك وانا منفرد عن البشر فكنت اقول في نفسي وانا بين القبور : هذه مدينة السلام · هنا تُدفن القوة والكبرياء · هنا تجد الفضيلة والطهارة حميً ترقدان فيه بامان · هنا تُطوى كل احزان الحياة ومخاوفها حتى الخوف من الموت نفسه · هنا المنزل الرحب الذي يرقد فيه براحة وسلام الكبيرُ والصغيرُ · البرهميُّ والخارجيُّ · وكلما كنت استسلم الى هذه التاملات كنت اكره الحياة واحتقر الدنيا واستعذب ورود الموت · وكنت البث ساعات متجهاً نحو المشرق وعيناي تتاملان في النجوم والكواكب العديدة الطالعة منه · ومع انني كنت اجهل مصير هذه الاجرام ومبدأها فقد كنت اشعر بانها مرتبطة بالانسان واحسُّ بان الطبيعة التي خلقت لنفع البشر اشياء كثيرة لا تقع تحت نظرهم يجب ان تكون قد اناطت بهم على الاقل تلك الاشياء التي تحت نظرهم · فكانت نفسي لدى هذه التاملات ترتفع الى العلى مع الكواكب والنجوم · ولما كان ينشقُّ الفجر وتنبعث خيوط نوره فتمتزج بنورها اللطيف كنت اخال نفسي على ابواب السماء · ولكنني لما كنت ارى عصابة

النور تعم الهياكل والابنية الشاهقة التي حولي كنت انسلّ من
اطراف المدينة بسرعة واذهب بعيداً عن الناس اقضي اكثر



«واذهب بعيداً عن الناس اقضي اكثر اوقاتي تحت ظل شجرة
جميلة وانام هناك على نغم العصافير المعششة فيها»
صفحة ٦٢ السطر ١

اوقاتي تحت ظل شجرة جميلة وانام هناك على نغم العصافير المعششة فيها »

الفصل السادس عشر

كيف احب الخارجي امرأته

وكان الهندي يتكلم والدكتور مصغ اليه بانتباه شديد لشدة اعجابه بكلامه وتاثره منه فلما سكت الخارجي ليستريح هنيهة قال الدكتور

« لقد اثرت بي قصتك ايها الرجل الفاضل و راقني وصفك للطبيعة وحبك لها فان للطبيعة محاسن ليلية لا تنقص عن محاسن النهار واعرف شاعرًا من ابناء وطني لم يكن يحلو له الا الترنم بها . ولقد عرفتُ الآن كيف كنت تعيش في الليل فاخبرني كيف كنتَ تعيش في النهار وكيف توصلت الى هذه السعادة التي تعيش في وسطها الآن

فاجاب الخارجي

« لقد كنت اقضي الليل هنيئًا وكثيرًا لمثلي الهناء في نصف

يومه . الا انني ما لبثت ان شعرت بعذاب الوحدة وعناء الانفراد لان للوحدة عناء كما لها هناء . وقد يخيل للتعيس انها المرفأ الامين يرى منه اهواء البشر وشهواتهم في نضال وعراك من غير ان يكون لهذه الاهواء والشهوات طريق الى نفسه . ولكن خاب ظنه فانه بينما يكون مستريحاً فيها ومسروراً بسكون جاشه وهدوء اهوائه يعدُّ له الزمان ما يهيج سكناته . فقد قدر للانسان ان لا يلقي مرساته في نهر هذه الحياة وقدر لهذا النهر ان يكون طاغياً ياخذ تياره كل ما في طريقه سواء واجهه او جاراه . ياخذ العاقل والجاهل معاً وكلاهما بعد قضاء ايامهما في هذه الارض ينتهيان الى حد سياحتهما وهو القبر دون ان يتمتعا بلذة الحياة لان احدهما يكون قد اغفل لذة ايامه والثاني اساء استعمالها . فرأيت نفسي بحاجة الى الاجتماع لانني لست اكثر حكمة من الطبيعة ولم اجد سبيلاً الى السعادة الا بواسطة النواميس الابدية التي وضعها الخالق لها . وكانت نفسي تطلب صديقاً صادقاً يشاركني في السراء والضراء فالتمست هذا الصديق بين البشر فلم اجد فيهم سوى كل حاسد . ولكني وجدت بعد بحث طويل صديقاً حساساً امينًا لا ينكر الجميل وليس للوهم

سلطان على قلبه وهو كلبي هذا · فانني وجدته في ذات يوم ملقى في احدى زوايا المدينة وهو في خطر الموت جوعاً فرق له قلبي فحضنته وعنيت بتربيته فتعلق بي وصار شريكاً وصديقاً مخلصاً لي · غير اني لم البث ان وجدت صداقته غير كافية لاني كنت بحاجة الى صديق اشد تعاسة من نوع الحيوان الى صديق خبر الناس وعرف كل متاعب الحياة البشرية ومصائبها ليساعدني على احتمال مصائبي و يوافقني على المعيشة في الطبيعة فنتمتع بخيراتها معاً · وهل تثبت تجاه العاصفة شجيرة ضعيفـة اذا لم تشتبك بشجيرة مثلها وتستند اليها · فاجابني الله الى طلبي واعطـاني امرأة صالحة · ولا تعجب اذا قلت لك انني استقيت مياه سعادتي من نبع مصائبي · و بيان ذلك اني قصدت في احدى الليالي مدفن البراهمة فرايت فيه على ضوء القمر فتاة برهميـة مستترة بغطاء اصفر اللون · فلما وقعت عيني على شخص من دم اولئك الظلمة الطغام الذين هم اصل مصائبي رجعت القهقرى مذعوراً ولكنني عدت فتقدمت منها ورق لهـا قلبي وكل جوارحي لما عرفت الغرض الذي جاءت الى المدفن من اجله · فانني رايتها منهمكة بوضع طعام على قبر يضم رماد امهـا التي احرقت وهي



البرهمية تضع الطعام على قبر امها
جرياً على عادة البراهمة

حية مع زوجها منذ عهدٍ قريب جرياً على عادة البراهمة .
ثم رايتها تحرق بخوراً على ذلك القبر استدعاء لروح امها .
فتبللت عيناي بالدموع لدى رؤيتي بشراً اشد تعاسة مني فجعلت

اقول في نفسي وانا ناظر اليها : انني اعيش مستريحاً في هاويتي اما انتِ فانك تقيمين مرتجفة مرتعدة على شفا وهدتك . انتِ لم تُعطي الا حياة واحدة ومع ذلك فانهم يطلبون منك ان تموتي ميتتين . ولا يبعد ان يصيبك غداً ما اصاب امك فيجرك موت زوجك الى القبر وانتِ ممتلئة حياة وشباباً . ثم بكيتُ لافتكاري بذلك وكانت هي تبكي ايضاً فالتقت اعيننا وملئها الدموع فتخاطبت من غير ان تتكلم كما تتخاطب اعين التعساء .

ثم صرفت الفتاة نظرها عني وتسترت بغطائها وسارت وانا انظر اليها . وفي الليلة التالية عدتُ الى هذا المكان . فرأيت على قبر امها طعاماً كثيراً كأنها علمت انني محتاج الى الطعام . وبما ان البراهمة يسممون كل ما يضعونه على قبور موتاهم لئلا يأكله الخارجيون فانها لم تضع غير ثمار على القبر مخافة ان اسيء الظن بالطعام . فاثر فيَّ هذا الجميل وهذه الشفقة فشكرتها في نفسي على رقة قلبها

الفصل السابع عشر

التخاطب بلغة الازهار
في الهند

ورغبة في اظهار ما كان في نفسي من الاحترام لها قطفت ازهارًا ووضعتها فوق الاثمار من غير ان اتناول من الاثمار شيئًا . وكانت الازهار التي وضعتها من نوع الخشخاش وهي رمز عندنا الى الاشتراك في الحزن . ففي الليلة التالية رايت ان عملي قد نال حظوة في عينها لاني وجدتها قد اعتنت بازهاري فرتبتها وسقتها ووضعت بجانب القبر سلة ثانية من الاثمار . فجرأني جميلها على اظهار ما بدأتُ اشعر به من الانعطاف اليها فاستعنتُ بلغة الازهار جريًا على العادة في الهند . فاضفتُ الى ازهار الخشخاش « زهرةَ الحزن » وهي زهرة معروفة عندنا . ثم جئت في الليلة التالية فوجدت انها قد سقتها ايضًا . فزادني الامل جرأةً فاضفت الى زهرة الحزن زهرة الفواسبات وهي زهرة يتخذها صناع الاحذية لصبغ الجلود بلون اسود وبها يرمز الرامزون الى حبٍ كله تواضع وعذاب . ثم بكرتُ في صبيحة اليوم

التالي الى المدفن لارى الزهرة فوجدتها ذابلة لانها لم تسقها ٠ فوضعت فوقها وانا مضطرب زهرة الخزام وهي زهرة ذات اوراق حمراء وقلب اسود رمزاً الى النار التي كانت تتقد في قلبي ٠ ثم عدت في الغد فوجدت زهرة الخزام ذابلة ذاوية ايضاً فاستولى عليَّ الحزن ولكنني تصبرت ووضعت زرَّ ورد مع شوكه رمزاً الى امل يخالطه خوف ٠ فوجدتُ زرَّ الورد في اليوم التالي ملقىً بعيداً عن القبر ٠ فاصابني اليأس وكدت افقد الرشد فعقدت النية على مخاطبتها متى رايتها ٠ ولما شاهدتها داخلة الى المدفن انطرحت على قدميها وفي يدي زرُّ ورد مع شوكه ولكني لم استطع ان الفظ كلمة ٠ فصاحت بي الفتاة حزينة : « يا لتعاستك وتعاستي ٠ تطارحني الحب وانا بين الموت والحياة ٠ لقد مات زوجي فيجب ان اتبعه الى محرقته ٠ اقترنت به فتاة وهو شيخ وقد مات فيجب ان اموت معه ٠ الوداع ٠ اذهب من هنا وانسني فانني لا اكون بعد قليل الا رماداً »

ثم تنهدت تنهداً فتت قلبي فاجبتها : « لقد قطعت الطبيعة الرباط الذي كان يربطك بزوجك ايتها الفتاة التعيسة فاقطعي بيديك اربطة الاوهام وهيا واتبعيني لاكون زوجاً لك »

فاغرقت الفتاة في البكاء وصاحت : « أأفر من الموت واتبعك لاعيش معك بالذل والهوان . كلا بل دعني اموت اذا كنت تحبني »

ففعل كلامها في قلبي فعل السهام فاجبتها : « معاذ الله ان ارضى بانقاذك من مصائبك لاضعك تحت نير مصائبي . وانما اردتُ ان نتوارى كلانا عن اعين الناس . فهيا بنا يا عزيزتي هيا نهرب الى الغابات والاحراش نخير للانسان ان يلتجئ الى الاسود والنمورة من ان يلتجئ الى الانسان . ومع ذلك فالله لا يدعنا نهلك اذا اتكلنا عليه . هيا فكل شيء يعدُّ لنا سبيل الهرب : حبي لك وظلام الليل وخلو البلاد . اسرعي ايتها الارملة التعيسة فان المحرقة قد اعدت وزوجك الميت يدعوك اليها . تعالي ايتها الزهرة الملتوية واستندي اليَّ فاكون لك عوناً وسنداً »

ولما اتممت كلامي القت الفتاة نظرة الى قبرامها كأنها تودعها واخرى الى السماء كأنها تطلب مساعدتها ثم انها القت احدى يديها في يدي وتناولت بالاخرى الوردة التي كنت اقدمها لها . فاخذتُ في الحال ذراعها وسرنا معاً سيراً حثيثاً .

ولما مررنا بنهر الكانج القيت فيه غطاءها ايهاماً لاهلها اذا وجدوه انها اغرقت نفسها . فصرفنا اياماً عديدة على الطريق وكنا نسير في الليل ونختبىء في الادغال كلما طلع النهار . وما زلنا سائرين حتى انتهينا الى هذه البلاد فوجدناها قفراء لان الحروب الماضية افنت اكثر سكانها . فاخترنا الاقامة فيها وبينما كنا نفتش عن مكان ملائم لنا عثرنا على هذه الغابة فبنينا فيها هذا الكوخ المستتر عن اعين الناس وغرسنا هذه الاشجار المثمرة التي منها طعامنا واقمنا في عيش رغيد وبال رخي . فنحن السعداء الآن على هذه الارض اذا كان فيها سعادة . واني اجلُّ امرأتي كما اجلُّ الشمس واحبها كما احب القمر ولا ملذة في العالم تساوي عندي ملذة معيشتي معها . ولذلك نعتبر انفسنا سعداء في وسط هذه الوحدة . وان كلامها في اذني وكلامي في اذنها لاعذب عندنا من اصوات جميع الناس واطرب من ثناء الشعوب »

قال الخارجي ذلك ثم نظر الى سرير ولده وابتسم له ولامرأته التي كانت بجانب السرير تذرف دموع الفرح والسعادة

فمسح الدكتور دموعه ايضاً لانه بكى من كلام الخارجي

ثم قال له : « حقاً ان من يحترمه البشر قد يكون جديراً بكل احتقار ومن يحتقرونه قد يكون جديراً بكل احترام . وانت وراس البراهمة خير مثال لذلك . ولكن الله عادل فانت في كوخك هذا اهناء عيشاً واحسن حالاً من رئيس البراهمة في كل عظمته ومجده . فهو مع طائفته لا يهناء لهم بال ولا يصفو لهم عيش فانهم يحملون تبعة الحروب الداخلية والخارجية وتُعزى اليهم كل الفتن والاضطرابات التي تحدث في المملكة فضلاً عن انهم لكثرة حضهم الشعب على الاستمساك بالخرافات والاوهام التي يلفقونها ينتهون الى الاعتقاد بصحتها اعتقاداً ينزع من نفوسهم عاطفة الحقيقة والعدالة والشفقة ويقيدهم بقيود الاوهام والعبودية التي اعدوها لابناء وطنهم فيحرمون على ذواتهم الملاذ الطاهرة التي حللها الله و يقضون على انفسهم بعناء الاغتسال والتطهير مراراً في النهار و باحراق اخواتهم و بناتهم وامهاتهم على مراى منهم ولا ريب ان ذلك عقاب لهم على دوسهم الطبيعة ومناقضتهم نواميسها . واما انت فانك تعيش سعيداً هنيء البال لانك تحترم الطبيعة وتعمل طبقاً لنواميسها . ولا شبهة في انك اسعد واعظم من الملوك والبراهمة والاعاظم

والاغنياء

الفصل الثامن عشر

السفر

ولما اتم الدكتور كلامه استاذنه الخارجي في مفارقته يتركه يستريح من تعب السفر وعناء النهار . ثم خرج مع امراته وابنه الى القسم الثاني من الكوخ . فنام الدكتور وهو يفكر في اقوال الخارجي وفي الصباح انتبه الدكتور باكرًا على اصوات العصافير المعششة في الشجرة التي كانت تظلل الكوخ وعلى صوت الخارجي وامراته اللذين كانا يصليان صلاة الصباح . فنهض من فراشه ودخل الى القسم الثاني لمشاهدة الخارجي فلم يجد في المكان فراشًا فعلم انهما باتا في تلك الليلة على الارض او قضيا ليلهما ساهرين ليجعلاه ينام مستريحًا على الفراش الوحيد الذي عندهما . ولما ابصره الزوجان القيا السلام عليه ثم اخذا باعداد طعام الصباح فخطر للدكتور ان ينزل الى الحديقة لمشاهدتها والتنزه فيها فخرج واخذ يتنزه بين اشجارها الملتفة المثقلة بالاثمار

وهو مشتغل عن المواضيع العلمية والاطماع العالمية . وكان يراجع في نفسه اقوال الخارجي فيجد ان هذا الرجل العائش عيشاً طبيعياً هو اسمى عقلاً واصح شعوراً من العلماء والفلاسفة الذين صرفوا ايامهم بين كتب العلم والفلسفة

وبعد وقت قليل خرج الخارجي من الكوخ ليدعو الدكتور الى طعام الصباح . فقال له الدكتور وهو يتنقل في حديقته : ان حديقتك جميلة ولكن لماذا لا توسعها فاني اراها صغيرة

فاجاب الخارجي . كلما كان منزل الانسان صغيراً كان ذلك اسهل لاختبائه وتستره . وان ورقة واحدة من الشجرة كافية لبناء عش العصفور

ثم دخلا الى الكوخ فوجدا الطعام معداً فجلسا يأكلان وهما صامتان . ولما نهض الدكتور عن الطعام ابلغ الخارجي انه عزم على السفر فحزن الخارجي وقال له

تمهل ياسيدي فان مياه المطر لم تجف في الطرق بعد فاتم جميلك علينا واصرف هذا النهار عندنا

فقال الدكتور . لا استطيع ذلك ياصاحبي لان في صحبتي اناساً كثيرين

فقال الخارجي . اظنك اشتقت الى بلادك حتى رغبت في سرعة العودة اليها . فسر ياسيدي الى تلك البلاد السعيدة التي يعيش البشر فيها باتحاد وسلام كانهم اخوة في عيلة واحدة

فنهض الدكتور وهو يتنهد من اعماق قلبه . ثم قال في نفسه متهكماً : « نعم نحن نعيش كاخوة في عيلة واحدة »

ثم اشار الخارجي الى امراته فاتت بسلة مملوءة بالازهار والاثمار وقدمتها للدكتور وهي مطرقة الى الارض . فتكلم الهندي بالنيابة عنها قائلاً

نلتمس منك ياسيدي ان تعذرنا لفقرنا فاننا لا نملك طيباً لنطيب به ضيوفنا جرياً على العادة في الهند وانما طيبنا ازهارنا فتنازل الى قبول هذه الاثمار التي جنتها يد امرأتي . وهذه الازهار التي رائحتها ثابتة رمزاً الى ثبات حبنا واخلاصنا ودوام ذكرك عندنا

فتناول الدكتور السلة بسرور واجابه قائلاً

لا استطيع ان اقضي حق ضيافتك يا اخي ولا ان اظهر كل ما في نفسي من الاحترام والحب لك . ولكني اقدم لك هدية ايضاً لتذكرني بها كما انني ساذكرك بهديتك . فاقبل

مني على سبيل التذكار ساعتي الذهبية فانها من معمل كراهام اشهر ساعاتي لندن ويكفي ان تُدار مرة واحدة في السنة »

فاجابه الهندي . لسنا بحاجة الى ساعة ياسيدي اذ لدينا ساعة لا تقف ولا يطرأ عليها خلل وهي : الشمس

فقال الانكليزي . ولكن ساعتي تنبه في كل ساعة

فأجاب الهندي . لا نحتاج اليها ياسيدي فان عصافير حديقتنا تفعل فعلها

فقال الانكليزي مدهوشاً . فاقبل مني اذاً هذه العقود المرجانية لامرأتك وولدك

فاجاب الهندي . ان امرأتي وولدي في غنى عن هذه العقود لان الازهار كثيرة في الحديقة

فقال الانكليزي . فاقبل اذاً هذين المسدسين لتدفع بهما عن كوخك غارات اللصوص في هذه البرية المقفرة

فقال الهندي . ان الفقر سور يُبعد اللصوص عن الفقراء وربما كانت قبضة غدارتك المفضضة سبباً لجلب اللصوص الينا فلا يعود ينفعنا رصاصها . فاستحلفك بالله الذي بين يديه حياتنا والذي منه وحده ننتظر مكافأتنا ان تترك لنا فضل

ضيافتك ولا تجتهد في ابتياعه منا

فقال الدكتور وقد تأثر جداً من هذا الكلام · ولكنني في كل حال احب ان يكون بين يديك اثر مني

فقال الهندي · احسنت في هذا الفكر ياسيدي ورغبة في ذلك اقترح عليك مبادلة جميلة وهي ان تهبني غليونك واهبك غليوني فيكون في يدي اثر منك وفي يدك اثر مني · وكلما دخنت بغليونك ذكرتك وذكرت على الخصوص ان عالماً من علماء الافرنج تنازل الى قبول ضيافة خارجي حقير ولم يترفع عن مجالسته ومؤاكلته

فقدم اليه الدكتور غليونه وكان مصنوعاً من الجلد الانكليزي وفمه من الكهرباء ثم تناول غليون الهندي وكان من الخيزران وفمه من الطين المشوي

ثم ان الدكتور نادى حاشيته ودنا من الخارجي فعانقه وودع امرأته وولده · وكانت المرأة واقفة امام الكوخ تبكي لفراق الضيف وطفلها بين ذراعيها · ثم سار الدكتور نحو هودجه فلحق به الهندي الى طرف الحرش وهو يدعو له بقوله « فليكافئك الله على التفاتك للتعساء · ليجعلني فداك اذا

كان قد قدّر لك شراً . ليبلغك وطنك براحة وامن . وليوصلك بسلام الى تلك البلاد الجميلة وطن العلم والعلماء حيث يعيش البشر باتحاد كأنهم اخوان ويبذلون كل ما في وسعهم للتفتيش عن الحقائق وخدمة بني الانسان »

فاجابه الدكتور بهذه الكلمات الوجيزة التي يجوز ان تعتبر حكماً على الهيئة الاجتماعية الحاضرة . وهي

« يحق لك ايها الانسان الفاضل ان تفخر على بني البشر قاطبة . فانني اجتزت في سياحتي هذه نصف الكرة الارضية ومع ذلك فانني كنت ارى حيثما نزلتُ رواق الجهل والشقاق ممدوداً . ولم اجد الحقيقة والسعادة الا في كوخك هذا »

تمّ الكوخ الهندي